كيدهن عظيم !

رواية

مصطفى النجار

كيدهن عظيم !

"اكتشفت أنني مثلك تماما . . أحمق آخر في طابور الحمقى الطويل الذي يمتد عبر التاريخ . . فتلك النسوة لا غاية في نظري من خلقهن إلا لثلاث:

- يعذبن رجالا فيصبحون شعراء ينظمون قصائد الشعر لتتناقلها الأجيال فيثرون اللغة، ويُثقِل حفظها الطلاب في مدارسهم . .
- يعذبن رجالا آخرين فيصبحون فلاسفة وحكماء تتناقل أفكارهم الأجيال ولا يلتفتون لعمق مغزاها.
- ينجبن رجالا معذبين بعقدهم النفسية من أثر من عرفوا من النساء فيصيرون سفاحي نساء يقضون عليهن.

هؤلاء سفاحي النساء برأيي هم الرجال بحق!

** مـذكـــــرات **

كـان لابـد أن يـأتي ذلـك اليـوم الـذي أقـرر فيـه كتابـة مـذكراتي الشخصية وإعلانها للجميع وأنا في كامل قواي العقلية ولست تحت أي ضغوط مادية أو معنوية، فقط كنت في انتظار الوقت المناسب، تلك المذكرات التي تؤرخ لكم كفاحي الشاق في ماراثون الحب الذي لا ينتهي والذي دام لعدد من السنين سأحصيه بالطبع حين أصل إلي النهاية إن أسعفتني الذاكرة . .

ولكن دعونا نتفق على بعض القواعد العامة في البداية، الذي أوله شرط دائما ما يكون آخره نورا مثلما يعرف الجميع:

- يُمنَع من قراءة هذه المذكرات كل من هم دون السادسة لاحتوائها على بعض العبارات التي قد تخدش حيائهم.
- يُمنَع من قراءة هذه المذكرات كل المدافعات عن حقوق المرأة وكل (الفيمينيستس).
- يُمنَع من قراءة هذه المذكرات كل المدافعين عن حقوق الرجل.
- يُمنَع من قراءة هذه المذكرات كل من يعانون من ارتفاع ضغط الدم والتهاب القاولون العصبي والتهاب الأعصاب الطرفية والتهاب البروستاتا كذلك كإجراء احترازي.
- يُمنَع من قراءة هذه المذكرات – أرجوكم وأتوسل إليكم – كل من يعرف زوجتي وكل من يرغب في تهدئة النفوس.

مذكراتي تلك قد يعتبرها البعض مملة وقد يستخلص الآخرون منها العِبَر وقد تكون سببا في أن تأخذ الأخريات بنا القليل من

الشفقة والرحمة، لا تنتظروا أن تغير هذه المذكرات هذا العالم وتجعل الحياة وردية اللون وتعطيكم أملا في حياة أفضل، لن تزداد مداركم اتساعا بعد انتهائكم منها ولكنها فقط مجرد تسلية لكم ووسيلة جيدة لشغل وقت فراغكم إن كنتم تطمعون بذلك، هي في النهاية مذكراتي الشخصية التي أوثق بها ما حدث معي بالفعل فإن كنتم ممن يحبون النميمة فأهلا بكم!

من الواجب علينا أن نتفق على الاسماء، فلن أرغب بالتأكيد في إصابتكم بصداع نصفي من كثرة تكرار (أنا) و(هي) . . ولن امتلك القدرة على الإفصاح عن اسمينا كي لا تكون – لا قدّر الله – الأكياس البلاستيكية قبرا لي إن هي اكتشفت يوما ما – لا قدّر الله - أنني أشارككم ذكرياتنا معا، ولذا من المقبول أن يكون اسمي (هشام) – إن لم يكن يضايق ذلك أحدكم - فهو – في اعتقادي- يلائم اسماء أبطال الكثير من الروايات الرومانسية، أما هي فالأولى أن نطلق عليها اسما كـ(حدأة الصحراء) أو (منبع الجحيم) أو (سونيا جرهام) . . ولكن الحرص واجب بالطبع وقد تعلمت حكمة من أحد الشعراء يختتم قصيدته قائلا:

*فلي قلم يعاندني وأخشى * * رعاك الله عاقبة الهجاء*

ولذا مجازا فلنطلق عليها (سالي)، فقد يكون العذاب مخففا إن عرفت بأمر هذه المذكرات . . وغالبا ستعرف، فنحن في عصر لا يظل الأمر فيه سرا لأكثر من ثانيتين وهي الوقت اللازم لعمل تسجيل الدخول على موقع الفيس بوك اللعين إن كانت سرعة الإنترنت فائق السرعة لديك ٥١٢ كيلو.بت/ثانية.

و الآن ذكرنا الشخصيات الرئيسية، وأرى بعضكم يتسائل عن المكان . . إنني الآن يا أعزائي أتواجد في حجرتي . . أين حجرتي؟! . . بالطبع في شقتي . . أين شقتي ؟! . . بالطبع في نفس الشارع الذي اسكن به . . ظننت هذا واضحا من

البداية ! . . اتفقنا على أن هذه مذكراتي الشخصية ومن حقي التظرف كيفما يحلو لي، لا تعتقد أنني ساذجٌ بالقدر الذي يجعلني أعطيك معلومات أكثر قد تودي بحياتي في يوم ما . . أخبرتكم من قبل إنني أكره أن توزع أشلائي على الأكياس البلاستيكية السوداء المصنعة من نواتج تدوير القمامة ولا زلت عند رأيي . .

و الآن . . . فليبدأ العد التنازلي إيذانا بتفجر الأحداث . . ولنرفع أكف الضراعة داعين "اللهم اجعله خيرا" . .

* * *

(*) شكرٌ واجبٌ لكل الشعراء الذين أثروا هذه الرواية بأشعارهم.

(**) اعترف بأنني ثرثار - بالثاء - وسالي كذلك لا تختلف عني، فنرجوا ألا تضايقكم ثرثرتنا الكثيرة.

رحلة عبر التاريخ . . المحطة الأولى:

كانت الشمس قد أوشكت على الذهاب في رحلتها التي عادة ما تستغرق الليل بأكمله نحو الغرب، بينما البترانودون – الزاحف المجنح – يصدر فحيحا يصم الآذان، في تلك اللحظات كانا يجلسان أمام فتحة الكهف . . إن اقتربنا قليلا فمن الممكن أن نتبين الملامح . . أترون ؟! . . هذا رجل ضخم الجثة، اختفي فمه ونصف أنفه السفلي خلف لحية وشارب كثين، اترك لكم تمييز لون بشرته الفعلي بعدما تغطي جسده بالكامل بشعر كثيف لا يختلف عن فراء الدببة القطبية في شيء . . إنه غوريلا متكلمة إن شئنا الدقة . . أما تلك المرأة التي ترتدي فراء أحد الحيوانات – ربما الماموث – إنها لا تختلف كثيرا عن هذه الرجل . . إنها غوريلا عارية من الشعر لمزيد من الدقة . . !

لنقترب أكثر منهما لنسترق السمع لحديثهما مع رجائي الحار بألا نصدر صوتا يعكر صفو لحظاتهما السعيدة تلك ورجاء آخر للأطفال بعدم التلصص على أحاديث الكبار مثلما نفعل الآن لأنها غالبا ما تكون +١٨ . . فلتعطوا يا أطفالا مقصا لضميركم ليقم بدور الرقيب الذاتي، هيا لنقترب وسأترجم لكم – مشكورا – حديثهما الحار إلى اللغة العربية.

- هل تحبني حقا يا سحفر؟

قالتها المرأة في دلال تجيده كأي أنثى أخرى.

- بالطبع يا خفكيشة يا أجمل ما رأت عيني . . أنا من أجلك على استعداد لأن أُحضِر لكي شعيرة من أذن ماموث . .

صدر ذلك الصوت في هيام مما يمكن اعتباره فما لغوريلا متكلمه.

- حقا ؟! . . حبيبي، يمكنني التأكد من حبك لي إذا حفرت نفقا في هذا الصخر حتى عش البترانودون المحلق فوقنا وتحضر لي أحد صغاره لنطهوه على العشاء فمعدتي تتمزق جوعا مع التهاب مشاعري بحبك . . والحب دوما يؤرقه المعدة الخاوية.

- و لكني قد أموت قبل أن . . .

- تموت ؟!!؟ !؟ !؟

صرخت في وجهه بكل جوارحها ثم استطردت في هيام أدهشه، فهي ليست من مواليد برج الجوزاء وفقا لمعلوماته!

- أتفضل أن تموت أم أتأكد من حبك لي يا سحفورتي؟!

هي تعلم جيدا من أين تؤكل الكتف !

- حبك بالطبع يا خفكيشة يا حبيبتي . . وأوصيك بأن تحتفظي بتلك البلطة من أجل الأبناء.

قالها في إحباط واستسلام . . طلباتها أوامر كما اعتادت !

* * *

ألواح الحجري اليوم، لوح الحوادث :

" مصرع أحد الحجريين نتيجة افتراس البترانودون المجنح له، و يذكر أن القتيل كان يحاول . . . . "

المرأة في العصر الحجري

* * *

(١)

حقيقة لا أعلم متي كانت البداية!

ظننت أنها كانت مع تلك الصفعة العنيفة التي تلقيتها على مؤخرتي عند الولادة من هذا الجزار الموكل إليه إدارة غرفة العمليات ويعتبره البعض طبيبا ؟! . . ثم اعتقدت أنها كانت عندما بدأت أميز ما حولي وأعي ما يحيط بي ؟! . . ولكنني أعتقد أن الأقرب أن تكون البداية مع حلول الصيف الذي تداخل مع نهاية امتحانات الصف الأول الثانوي مباشرة . . أول يونيو . .

كانت من عاداتي السيئة التي أحافظ عليها أثناء الأجازة الصيفية أن أظل مستيقظا طوال الليل محاولا بشدة أن أكون خفاشا بشريا لأنام مع دقات الثامنة صباحا، ولكن لأن أجازتي كانت لتوها قد بدأت، فلم تكن ريما قد عادت بعد لعاداتها القديمة . . ففي صباح يوم جمعة، ومع دقات الساعة السابعة صباحا، تسللت بعض نسمات الهواء المنعش ببرودتها إلي غرفتي، استيقظت قافزا من الفراش قفزة رشيقة جديرة ببرغوث بالغ متجها نحو الشرفة لأعبئ صدري بالكثير من هذا الهواء المنعش . . هذا هواء صحيٌ لم تلوثه بعد عوادم السيارات التي صارت تتكاثر ذاتيا !!

خرجت إلى الشرفة فاتحا فمي كأفراس النهر متثائبا ومحاولا – عبثا – أن اطرد ذلك النعاس من عيني . . ليتسلل الهواء

البارد إلي أنفي بلا أي مقدمات فأبى أنفي اللعين إلا وأن أعطس و . . .

- أتشووووووووووووووو . .

- يرحمكم الله . .

قفزت رعبا من مكاني على أثر ذلك الصوت الأنثوي الدافئ والذي صدر من الشرفة المجاورة ! . . عندما التفت باحثا عن مصدره وجدت فتاة تماثلني حجما وربما عمرا وإن لم يخلق بعد ذلك العبقري القادر على تحديد عمر فتاة !

كانت تنظر لي وابتسامة عريضة تتوج ثغرها المُتَبَسِم – مثلما يقول الشاعر – و قد أمسكت في يدها كتابا ضخما يشبه كتب السحر التي ذاكرت منه الساحرات الشمطاوات منهن والحسناوات في العصور الوسطي كمراجع قيمة خلال الدراسات العليا ليحصلن على درجتي الماجيستير والدكتوراة!

حقيقة لا أعرف ماذا حدث حينها بالضبط ! . . فقد اهتزت يدي في الهواء بلا معني وتحول وجهي لثمرة طماطم أنضجها الخجل بلا داعٍ وعدت أدراجي إلي غرفتي! . . عندها تذكرت الضوضاء وأصوات "طريخ طراخ" التي أرّقت نومي ليلا والصادرة من الشقة المجاورة والتي اعتدتها خالية – إن تناسينا الأشباح اللعينة – ثم في لحظات تناسيت الأمر برمته واستكملت نومي.

* * *

* * *

وأواري طرفي إن بدت لي جارتي * * حتى يواري جارتي مأواها

* * *

في صباح ذات اليوم، كانت أمي تطهو طعام الإفطار عندما دخلت عليها وقبلت رأسها كعادتي ثم سألتها:

- هو أستاذ سالم جارنا رجع يا ماما ؟!

- آه يا هشام، ده كان وخديجة مراته ونعم الجيران لينا والله، ده كفاية إن خديجة مراته . .

وظلت أمي تحدثني عن خديجة زوجة الأستاذ سالم وطيبتها ورقتها وحنانها ليتدفق نهر ذكرياتهما السعيدة معا مهددا بإغراق المطبخ وما حوله وأنا أنصت في استمتاع حتى قررت أمي إنهاء فيض الذكريات المتدفق بإعطائي الأطباق لأخرجها، فسألتها وقد امتلأ فمي بعدة أصابع من البطاطس المقلية الساخنة:

- كان فيه بنت كده واقفة في البلكونة بتاعتهم الصبح، هي دي بنتهم سالي ؟!

نظرت لي أمي نظرة على غرار "وما – دخلك – أنت؟!" وقد انعقد حاجباها فوددت لو أن الأرض قد انشقت وابتلعتني حين قالت في سخرية ضاممة شفتيها كالأطفال:

- قصدك على البنوتة (لولا) أحبها ماما ؟!

لم افهم بالطبع ماذا تقصد أمي بتلك العبارة وإن زادت حيرتي حين تابعت في مرارة مثيرة للدهشة:

- باينك اشتقت لكل علقة اللي اسخم من اللي قبليها يا إتش!

استقل حينها حاجباي المصعد حتى سطح المنزل في دهشة ثم ثبتا مكانهما حين تابعت بنفس المرارة:

- ما كنتش بقدر استحمل يا موكوس أشوفك وسالي بتنزل عليك ضرب وشلاليت وأنت قاعد بتضحك وفرحان !

في تلك اللحظة ألحت علي كرامتي بشدة، لم تكن سالي تكتفي بالضرب فقط !

أقد وصل الأمر للـ(شلاليت) ؟!

حاولت أن أعلن اعتراضي في الأمم المتحدة شاجبا ومدينا تلك الجرائم اللاإنسانية ولكن لم تمنحني أمي الفرصة حين تابعت:

- مش هنسى يا منيل أبدا يوم ما كنا بنصيف في جمصة وجيت ليا وشعرك كله غرقان رمل ولما سألتك قولتلي وأنت في قمة الإنشكاح . . . دي لولا حبيبتي يا ماما !

حقيقة، لم امتلك حينها المقدرة لأمنع نفسي من الابتسام وقد التصق جانبي فمي بمنبت الأذنين، فابتسمت أمي بدورها قائلة:

- عدت الأيام والسنين وأنا كل يوم بتأكد أن ربنا الحمد لله رزقني بعيل أهبل!

* * *

يبدو أن الأحداث تتوالى سريعا!

ففي نفس اليوم بعد العشاء ذهبت مع أبي وأمي إلي جارنا الأستاذ سالم لنرحب بعودته وعائلته سالما غانما محملا بأربعين جرة تتكدس بالعملات الكويتية فئة ١٠٠٠ دينار، طرقنا بابهم محملين ببعض أكياس الفاكهة التقليدية قبل عصر الكيوي والكاكا في زمن كانت فيه الكاكا كلمة ذات دلالة منفرة.

كنت بطبعي لا أميل إطلاقا لمثل تلك الزيارات الأسرية والواجبات الاجتماعية التي يضيق بها صدري، أفضل أن أبقى في غرفتي مستأنسا بوحدتي متفرغا للقراءة المفيدة بدلا من إضاعة وقتي الثمين في تبادل أحاديث لا طائل منها مع رب الأسرة والذي يسألني عادة عن نتيجة الامتحانات ولماذا لم أحصل على الدرجة النهائية باعتباري ألبرت اينشتاين غير أشعث الشعر على الرغم من أن ابنه الفاشل قد يكون راسبا في مادة الخط العربي!

حتى وإن حالفني الحظ ووجدت من هو في مثل عمري، فساعتها لا أتحمل أي حديث عن الدراسة أو معجزة ذلك العصر "البلايستيشن" اللعين الذي أصاب من في مثل عمري حينها بالجنون!

لكل ما تقدم من أسباب موجزة كنت رافضا لفكرة الذهاب مع العائلة لزيارة الأستاذ سالم الذي قطعا لن يكف عن الحديث عن روعة دولة الكويت الشقيقة والنظام والالتزام هناك، أما زوجته

فلن تكف بالطبع عن الاسترسال في الحديث عن معاناتهم في الغربة لدرء الحسد والتحصّن بغرس أعواد الثقاب في أعين الحاسدين.

تزايد رفضي مع رغبتي في إكمال أحد الكتب التي تعتبر من مصادر الثقافة العامة التي لا غنى عنها بعنوان "أثر اكتمال القمر على آكلي لحوم البشر"، هو كتاب مهم جدا كما ترون . . الخلاصة كما تتوقعون وكي لا أطيل عليكم، لقد انهار حائط الرفض أمام أبي الذي يرى أنني قد أصبحت رجلا يتلوث أعلى فمي بشارب وهمي ولابد إذا من أن أشاركه في كل الواجبات الاجتماعية وخاصة فيما يتعلق بحقوق الجيرة.

إحقاقا للحق، قابلنا الأستاذ سالم بكل الترحيب الممكن، وما هي إلا ثوان وتم التقسيم المنطقي والمتوقع والذي كنت أخشاه، فقد استقل الأستاذ سالم بحديثه مع أبي محدثا إياه عن روعة دولة الكويت الشقيقة وعن روعة النظام والالتزام هناك، أما زوجته فقد اختصت أمي بحديثها عن معاناتهم في الغربة وضريبتها . . ألخ. أما أنا فجلست صامتا متحفزا لإنقاذ أمي إن حاولت السيدة خديجة زوجة أستاذ سالم أن تغرس أعواد الثقاب في عيني أمي درءا للحسد . . ولم يختلف حال سالي الجالسة أمامي عن حالي كثيرا لنتشارك سويا الصمت!

كانت تلك هي المرة الأولي التي أري فيها سالي عن قرب بعد كل ما مضي من السنين – هي ثمان سنوات إن لم تخني الذاكرة – وقد بدت في قمة الجمال أو هي الجمال ذاته وقد عبرت بقوة من تحت يد (خراط البنات) الذي لم يبذل مجهودا يذكر مع شعرها الأسود الفاحم الناعم الذي يسترسل في هدوء حتى منتصف ظهرها، ولا مع هذا الوجه الناصع البياض الصافي الشفاف الذي يظهر من تحته بعض الأوردة باللون الأخضر

الجذاب المائل لزرقة السماء وقت صفائها في غير مواسم حرق قش الأرز، ماذا قد يفعل هذا الـ(خراط البنات) مع ذلك الفم الدقيق والعينين العسليتين ؟!

هي كانت أجمل فتاة رأيتها في حياتي حتى لحظة كتابة هذه الكلمات!. . تغار فينوس وأفروديت وإنجلينا جولي وكرستين دانسيت ويسرا اللوزي من جمال سالي الخلاب !

بعدما انتهى هذا المؤتمر الأسري المصغر، عدنا لشقتنا العزيزة لأسرع نحو الفراش مستمتعا بممارسة أكثر الهوايات إملالا على وجه الأرض . . هي النوم لاشك.

ما هي إلا دقائق حتى سافرت مبحرا إلى مملكة النوم المحببة لأشرف باستضافة سالي الجميلة – بكل أدب وبراءة - في مملكة أحلامي المتواضعة.

* * *

(٢)

يبدو أن الأحداث تتوالى سريعا !

بعد اللقاء الأول تتابعت اللقاءات الأسرية، وبدئنا أنا وسالي ننفض سويا ذلك الغبار الذي خلفته الأيام على طفولتنا البريئة جدا . .

في الواقع أشهد لها بأنها كانت فتاة ناضجة وقد بدئت أميل إليها كثيرا كـ(صديق)، وليسامحنا أساتذة اللغة العربية الكرام ومجمع اللغة العربية وجامعة الدول العربية - التي أصبح نادرا أن نسمع أحدا بها يتحدث العربية - على وصف سالي بالصديق، فهو الوصف الأنسب لها في ذلك الوقت.

كنت أراها دائما بعقل رجل ناضج، فقط ينقصها شارب ولحية وحذف تاء التأنيث !

أعلم جيدا ما يدور بذهنكم الآن وأنتم تقرئون هذه الكلمات، تظنون أنني شاب مراهق في السن الأمثل للانحراف الذي يتميز بالدخول المتكرر للمواقع الإباحية وغرف الشات الخاصة بالياهو بعد اندثار عهد مجلات (السيكوسيكو) الجنسية التي

كان البعض يخفيها في كتاب الأحياء جوار درس الجهاز البولي والتناسلي الأكثر شهرة . . !

لكن أبشركم، لقد خاب ظنكم . .

كل من تعامل معي في تلك الفترة يشهد بالعكس تماما، كما إنني لسوء الحظ – عن عمد – لم أمر بأي تجربة عاطفية ملتهبة مثلما فعل المحظوظون في مثل سني، لم أقف على قارعة طريق انتظر فتاة بعد الدروس الخصوصية مصففا شعري كرشدي أباظة، لم أحاول أن أريها شعرا بصدري لم ينبت بعد، لم أدس لإحداهن خطابا عاطفيا ملتهبا بين كتبها، قد يعتقد البعض أن ذلك يرجع لحسن التربية وقد لا اختلف معه كثيرا، ولكن صراحة كنت أخشى كثيرا المشاكل التي تصاحب التعامل مع ذلك الكائن المسمى بالـ(أنثي)، نوع من الترفع المُسبَب بقصر الذيل كما يقول العامة!

مضت الأجازة الصيفية بسرعة البرق لندخل في سنوات الدراسة التي تتميز بالشقاء والعناء والتعب والكفاح المتواصل في محاولة لتحديد المصير نسبيا في المستقبل.

إنها الثانوية العامة اللعينة . . !

تلك اللعنة الأبدية التي أرادوا أن يصيبوا بها الآباء، رعب البيوت المصرية، مصاص الدماء الذي يتغذى على أي أموال في جيوب الآباء . . !

هذه الثانوية العامة التي لا ينفع المرء فيها اجتهاد قد بذله من قبل، فلتلعب كيفما شئت ولترسب كيف شئت، يكفيك الاجتهاد في الثانوية العامة بعاميها – لم تكن قد أصبحت عاما واحدا – لتضمن لك الدولة بمنظومتها التعليمية الفاشلة أن تدخل الكلية

التي طالما حلمت بها ونظمت في حبها قصائد الغزل واعتقدت واهما أنها تتربع فوق القمة!

ولما كنت وسالي ندرس في ذات العام الدراسي، فكان لابد من أن يساعد كل منا الآخر ونرتوي خلاصة العلم سويا من كأس الدروس الخصوصية معا في شقتها أو شقتي!

قرر الأهل أن يأتينا المدرسون حاملين العِلم في محاقن ضخمة ليحقنوها في أوردتنا بالمنزل لنوفر ساعات قد تضيع في رحلة السعي ما بين مدرس وآخر . . لم يكد بأيدينا إلا أن نحمد الله أنها كانت للحقن الوريدي لا للحقن بالعضل.

لم أدخل حجرة سالي إلا مرات قلائل، كانت تشبه حجرتي كثيرا، لا صور ملتصقة على الجدران لمطربين يتظاهرون بالوقوع أسرى في شباك الغرام ولا مشاهير من لاعبي الكرة أشعثي الشعر، هناك فقط كتب تتناثر في كل مكان.

كنت أقرأ في شتى فروع العلم والأدب بينما هي تقرأ كثيرا عن الرياضات القتالية وفنون الدفاع عن النفس وخصوصا الكاراتيه الذي تمارسه منذ الطفولة إلي جانب كتب التاريخ الضخمة التي تمثل مراجع قيمة وتجلب ثمنا وفيرا إذا بيعت لبائعي الطعمية مثلما نصحتها مرارا!، لديها في ركن خاص المجموعة الكاملة لأعمال الشاعر السوري نزار قباني!

لا تتعجب من دواوين نزار قباني التي تقطر رومانسية إلي جانب كتب الرياضات القتالية والكاراتيه، فالمرأة هي المرأة، ومهما بلغ العنف لديها سوف تجد الرومانسية قابعة متربعة داخل قلبها، حتى إنني لأتصور أحيانا أن (أمنا الغولة) بشحمها ولحمها والتي بللت سراويل ٩٩,٩٩% من أطفال مصر وجعلتهم ينامون بين أحضان بركة من المياه قبل اختراع

الحفاضات قد نجدها متلبسة بقراءة ديوان"لا غالب إلا الحب" !

اتفق معكم بأننا كنا – عمريا ونظريا - في مرحلة المراهقة المشتعلة المتأججة بخيالات مريضة تشكلت من أفلام ليلي علوي ونبيلة عبيد ونادية الجندي كنجمات للإغراء في تلك الآونة.

نعم كنا في السن الأمثل للانحراف كما قلت مسبقا، ولكن كان الأهل من الجانبين يدركان بأننا قد نشئنا على تربية سليمة قويمة، لم يكن السبكي بالنشاط الحالي المبالغ فيه في تلك الأيام لنعرف كيف تكون للقُبلة من الفم مذاق آخر وكيف ندرك استغلال تضاريس الجسد في متعة متبادلة، كنا نستحوذ على قدر كبير من الثقة من الأهل على الجانبين وكان علينا احترام هذه الثقة.

ولكن، وآه من لكن تلك التي تليها دائما المصائب والكوارث والنكبات، كان الاعتياد أقوي من أن أخضعه تحت السيطرة، فلتجالس أمرأة شمطاء ككجولدا مائير يوميا وستشعر بانجذاب نحوها مع مرور الوقت! . . مع مرور الأيام شعرت بشيء صغير ينمو في تلك العضلة في صدري، لست كائنا مريخيا كي تتصورا أن المصيبة تكمن في أن أعضائي تتكاثر ذاتيا وتنقسم انقسامات ميتوزية إن كان ذلك ممكنا، بل لم يثبت بعد وجود حياة عاقلة على كوكب المريخ الشقيق !

للدقة، قد رأيت شيئا يسمى الإعجاب ثم الحب ينمو في قلبي حبيسا بقفصي الصدري الذي جعل يضيق به . . حسنا لا تحدثني عن مشاعر المراهقين فقد اتفقنا إنني إن كنت مراهقا حينها فما كنا وصلنا لكتابة هذه السطور . .

سالي كانت أول فتاة أشعر نحوها بحب جارف لا يُبقي ولا يذر . . هذا الشعور الذي يتملكك و يمنعك من أن تبقى بعيدا عمن تحب لأكثر من خمس دقائق، هي وقت كاف لدخول دورة المياه وقضاء حاجتك بمفردك وسط روائحك الكريهة . . أبو العلاء المعري ستره الله لخَّص هذا الشعور حين قال . .

*إذا شئت أن تلقى المحاسن كلها * * ففي وجه من تهوى جميع المحاسن*

لكم وددت أكثر من مرة أن أخبرها بأنني غارق في سكرة حبها حتى الثمالة، ولكن كان عدوي الأول حينها هو (الخجل) اللعين وعدوي الأخير هو (الخوف) البغيض من عواقب هذا التصريح التام بمشاعري وما سيليه من ردة فعل منها!

- سالي . . أنا . .

أقولها في ارتباك كل مرة . .

- أنت إيه ؟!

تقولها في عدم اهتمام . .

- لأ مفيش . . مفيش . .

تخرج مني تعتلي ظهر الإحباط عائدة بخفي الفشل!

يتكرر هذا الأمر مرات ومرات حتى إنها أوشكت أن يفيض بها الكيل ويغرق ما حولها وحولي . .

أصبح استفسارها في نفاذ صبر أخافه فآثرت الصمت حتى لا أصبح ليلتها دمية التدريب . .

* * *

* * *

أيا معشر العشاق بالله خبـــروا * * إذا حل عشق بالفتى كيف يصنع

وكيف يداري والهوى قاتل الفتى * * وفـي كـل يـوم قلبه يـتقطع

* * *

إنـه شـهر ديسـمبر عنـدما يتسـلل البـرد القـارص إلـي نخاعـك العظمـي فينخـر فيـه بقسـوة لا تختلـف كثيـرا عـن قسـوة تنظـيم القاعدة أو زبانية داعش . .

كنت أسير في الشارع الذي كاد أن يخلو من المـارة عائـدا إلـي البيـت وإذ بسـالي تسـبقني بخطواتهـا المتعجلـة، فـي أقـل مـن لحظـات لا تكفـي للتفكيـر فـي تراجـع حسـمت أمـري وأسـرعت الخطى حتي لحقت بها . .

- سالي . . لحظة والنبي . .

التفتت لي في دهشة، فقد كانت تلك المرة الأولي التي أخاطبها في الشارع ولم نكن بـالطبع مـن الطراز الـذي يـذهبان للمدرسـة سـويا متشـابكي الأيـدي وتشـاركني أرغفـة اللانشـون والجبنـة الرومـي وقـت الفسـحة وذلـك بـالطبع لأن كـل منـا كـان يـذهب لمدرسـة منفصـلة فـي مجتمـع محـافظ يعتبـر الاخـتلاط كفـرا بينا . . !

يا للفصل العنصري !

- إتش – هكذا تناديني - ؟! . . فيه حاجة ولا ايه ؟!

شـعرت بثمـرة بطـيخ تصـر علـى أن تسـد حلقـي . . ابتلعتهـا بصوت سمعه أهل طوخ طنبشة، وبدأ قلبي الجبان ينبض بعنف حتى كاد أن ينفجر لولا أن خفت أن يلـوث ثيابهـا . . هذا مشـهد دموي لا يمت للرومانسية بصلة!

- سالي . . .

- إيه يا هشام ؟! ؟! . . فيه حاجة ولا إيه ؟! . . قلقتني ؟! . . مامتك كويسة؟!

- سالي . . أنا بحبك.

صَمَتُ . . اللحظات تمر ببطء أمامي . . المارة في الشارع توقفوا تماما عن الحركة . . ذلك القط المتشرد الأجرب الذي كان يراود قطته عن نفسها توقف . . لمحت قطرة من المطر الذي يحاول أن يتساقط توقفت أمام عيني . . حينها لمحتها تبتسم من وراء قطرة المطر تلك . . أكاد أقسم على هذا . . الابتسامة تأخذ في الاتساع . . فجأة - دون أي مقدمات - تبدل الموقف تماما . . رأيتها تكشر عن أنيابها كأي ذئب جائع يستعد لالتهام طفل ساذج ضل طريقه . . سقطت قطرة المطر . . أكمل القط المتشرد الأجرب ما كان يفعله مع قطته . . استكمل المارة حركتهم . . وهوت الصفعة بكل عنف على وجهي من يدها التي حسبتها دوما رقيقة . . و حال دون أن تكتمل الدموع في عيني هذا الصوت الذي صدر من أحد العجائز عن قرب حين صاح بصوت أزعج سكان طوخ طنبشة مرة أخري . .

- أنت يا صايع يا قليل الأدب يا ابن الكلب . . .

هنا فقط أدركت المدى العظيم الذي وصلت إليه شهامة الشعب المصري العظيم عندما وجدت جميع طوائف الشعب ممن حالفهم الحظ بالتواجد في الشارع من عمال وفلاحين وحملة المؤهلات . . مسلمين ومسيحيين . . أطفال وشباب وعجائز . . جميعهم يتحركون نحوي لانتزاع حنجرتي بلا هوادة . . وحمدا لله على قيام الأدرينالين - بارك الله فيه – بدوره، فانطلقت قدماي فرارا من هذه السرية الشعبية والتي يتضاعف عددها

تدريجيا بعدما صاح أحد الشباب الأوغاد بالعبارة السحرية والتي تؤجج الحماس . .

- حرامـــــــــــــــــي . .

وتضاعفت سرعتي أو هكذا خيل إلي لتفوق سرعة أي فأر يحترم نفسه يفر من مكنسة تطارده . . أبصرت ميكروباصا يتوقف لينزل أحد الركاب لأقفز فيه دون أن اعرف له وجهة لأفر بجلدي قبل أن يسلخ حيا!

* * *

* * *

إذا لم يجد الفتى صبرا لكتمان سره * * فليس له شيئا سوى الموت ينفع

* * *

في ذلك اليوم عدت إلي البيت ودخلت إلي غرفتي لانفرد بنفسي كثيرا من أجل التفكير في كل ما حدث . .

كنت في هذه اللحظات اشعر بمرارة شديدة تعتصر قلبي اعتصارا لدرجة جعلتني حينها أفكر جديا في الانتحار برصاصة في الفم مثلما فعل أبو جودة - يحيي الفخراني – في فيلم إعدام ميت بعدما علم بخدعة المخابرات المصرية له . . و لكن من أين لي بمسدس؟! . . ناهيكم عن الانتحار مصيره جهنم في الآخرة وكفاني جهنم الدنيا . . ثم هذا التصرف يجعلني ضمن الجبناء الذين يهربون من شدائد الدهر . .لأكن رجلا ولأوجهن آلامي . . ولكن لأعطي أولا لدموعي حريتها في أن تنساب . .

يا لها من راحة نفسية تكمن في نعمة البكاء!

لم أكن أتخيل حينها أن أول وأصدق حب في حياتي قد تحطم . . سالي التي لم أحب غيرها قد دمرتني ومزقتني أشلاء لا تكفي أي شلو منها لإطعام قط أجري جراحة تدبيس لمعدته!

يا للفضيحة !

هشام المعروف بالخلق القويم والأدب الجم وبأنه يخجل ويستحي من خياله، يُصفع ويُطارد ويُسب بأبيه والأدهى . . . يُتهم بالسرقة!

يا للفظاعة !

يا للفضيحة !

يا للعار !

لم أكن أدري حينها كيف لي أن أحيا في هذا العالم بعد أن حدث لي كل هذا ؟!

كيف سأواجه البشرية !

لم أعلم كيف غاب عن ذهني هذا الأمر الذي أدركته الآن ؟!

كيف أحب تلك المخلوقات الشرسة اللاتي يقال عنهن دوما – افتراءا وظلما وبهتانا وكذبا والكاذب في النار – إنهن الجنس الناعم اللطيف ؟!

يا لسخرية القدر !

ما دمن هن الجنس الناعم اللطيف فلماذا إذا وُجِدَ في الوعي الجمعي المصري (النداهة) و (أمنا الغولة) وفي الوعي الجمعي البشري (الساحرة الشريرة) و (جنية البحر) والأخت الفاضلة (ميدوسا) ؟!

كلهن يحملن زوج الكروموسومات (XX) !

نحن معشر الرجال الحاملون لزوج الكروموسومات (XY) من نُظلَم . .

نحن من نُمزَق ثم نُعبَأ في أكياس بلاستيكية سوداء معاد تصنيعها من القمامة . .

نحن من نتحمل الصفعات ولست الحالة الوحيدة المسجلة في التاريخ . .

راحت ساعتها أغنية عبد الحليم حافظ "جباااااااار" تتردد في ردهات عقلي ولم أدر في تلك الليلة متي ولا كيف نمت . . . ولكنني نمت . . وأسوأ النوم هو الذي يغلب المرء وعينه لم تكف عن البكاء . . أسوأ النوم هو النوم مقهورا.

* * *

* * *

وليس الذي يجري من العين ماؤها * * ولكنها روح تسيل فتقطر

* * *

(٣)

اللعنة . . !

يبدو أن الأحداث تصر على أن تتوالى سريعا !

في تلك الليلة بعد العشاء بقليل زارنا عمي وجلس مع أبي بمفرديهما يتحدثان لما يزيد عن الساعة . . بالطبع أنا في الفراش أعاني ويلات المرض وقد ارتفعت حرارتي لدرجة لا احسب الترمومترات العادية بقادرة على احتمالها . . ماذا عن الترمومترات الشرجية ؟! . . لا، حمدا لله لم تخطر على بال أبي . .

دخل أبي مع عمي إلي حجرتي وعندما تصنعت أنني أحاول أن اعتدل في جلستي أشار لي أبي أن أستريح . . وهذا ما كنت أريده . .

هنا لاحظت أن نظرات عمي بها بعض السخرية الممتزجة بالجفاف والاستخفاف وقد بدا غامضا . .

- ألف سلامة عليك يا سي هشام بيه . .

قالها عمي في سخرية، ولم ينتظر ردا ورحل سريعا . . لقد أستهلك في أقل من دقيقة كل الأوكسجين المتواجد بالغرفة ولم يترك إلا ثاني أكيد الكربون منتهي الصلاحية!

ما الحكمة من وجود الأعمام في الحياة ما داموا قيمة – دائما – سلبية ؟!

عاد إلي أبي بعد أن ودعه ليسألني عن حالتي . .

- مفيش تحسن يا بابا . . يا دوب تلحق تتصل بالحانوتي وتجهز الفراشة . . بلاش جو القهوة السادة دي . . اللي هييجي جاي عشان يعزي مش يتكيف . .

ضحك أبي في تلقائية، لكم أعشق هذا الرجل الذي يفهمني بسهولة دون أن أنطق بحرف واحد . . كثيرا ما شعرت أنه صديقي الحق . . وجدته يجلس جواري ويمسح بيديه على رأسي في حنان غير مصطنع . . يديه تلك وضع الله في خشونتهما الرجولية حنان الأرض . .

- مفيش حاجة في الدنيا دي يا هشام يا ابني تستاهل الحزن والمرض . .

فنظرت له في عدم فهم، فتابع في إشفاق . .

- حتي الحب ياض يا إتش !

تلاقت أعيننا للحظات بدت أشبه بدهر . .

أحاول أن أخترق عقله فأفشل . .

سيل جارف مدمر من التساؤلات يكاد أن يقتلني غرقا . .

ماذا يعني بقوله هذا ؟!

هل علم بالأمر ؟!

من أخبره ؟!

هل كتب علي في تلك الليلة أن أجرب عمليا (الفلكة) و(الخرزانة) و(يد المقشة) وربما (عروسة أمن الدولة) ؟!

- بتحبها ؟!

كش ملك . . لقد حاصرني أبي وقتل وزيري وأعدم بالرصاص حصاني وقطع خرطوم فيلي المسالم المسكين وقد دك كل حصون دفاعي . . الإنكار ليس فيه منفعة، علَّ الاعتراف يخفف عقوبة قادمة، هززت رأسي في إيجاب من دون وعي ودون النظر إلى العواقب . .

- فكَّر طيب كده يمكن تكون البت عاجباك والسلام . . إعجاب يعني والبنت مزة الصراحة زي أمك زمان . .

رفعت حاجبا إلى السماء السابعة، وخفضت بالآخر لسابع أرض، فاستدرك أبي قبل أن يخسر جولة مفاوضاته تلك:

- خلاص يا عم هو أنا باعاكسها . . أمك كانت زيها بالظبط والله لولا المسيح والغسيل والطبيخ . .

- بابا . . أنا فكرت في الموضوع كتير والله . . مش ممكن يكون إعجاب . . ده مالوش غير اسم واحد . .

أدركت تسرعي فصمتُ !

- خلاص يا هشام . . أنا واثق فيك يا ابني والله واتمنى تبقى مدرك الثقة دي ومقدرها . . ومش هقولك أنت صغير على الحب والكلام ده . . أنا حبيت مزتي اللي متجوزها دي وأنا في سنك على فكرة . . أنا مربيك كويس ومتأكد أنك عارف الصح من الغلط بس أرجوك ما تخيبش ظني فيك . .

صمت لبرهة يزن فيها كلماته ثم تابع . .

- الحب ده يا واد يا إتش عامل زي نزلات البرد كده . . مالوش وقت . . هو بيظهر فجأة كده لما يلاقي البيئة

المناسبة علشان يعمل مستعمرات في قلبك بدل لا مؤخذة مناخيرك . . مش هقولك سالي بنت أخلاقها وحشة . . أنا واثق في أخلاقها يمكن أكتر منك وخصوصا بعد القلم المحترم اللي طرقع على وش جنابك . .

- بابا . . أنا . .

- أنت اتصرفت غلط . . ما ينفعش يا ابني تمشي وراها وتعاكسها وتقولها الطشت قالي الطشت قالي !

يا للروعة . . !

في تلك اللحظة أدركت أن للأعمام – أخيرا – دور في هذه الحياة ! . . عمي لا بارك الله فيه قد تدخل في الموضوع، فماذا قد يجدي الدفاع عن نفسي وبأنني بريء من تلك الاتهامات قاطبة براءة الذئب من دم ابن يعقوب وأن هذا المتهم الماثل أمام . . .

- هشام ؟!

- إيه يا بابا ؟!

- اسمها إيه ؟! . . أنت رحت فين كده ؟!

- يا بابا أنا عارف إنك مش هتصدقني . .

- هصدقك . .

وحكيت لأبي كل ما حدث بالتفصيل الممل، لم أخبره بالطبع بأن أحد العجائز – اسكنه الله سقر – قد نعته بالكلب . . ولكن يبدو أنه قد صدق كلامي في النهاية . .

- هشام يا ابني . . أنت بتحبها ومش هقدر أمنعك . . علشان ده مش بأيد حد . . أنا حاسس بده من فترة . . ومامتك برضوا لمَّحت كتير إنك غرقان في سالي لشوشتك . . بس أنت داخل على امتحانات ثانوية عامة . . أنا عايزك بس تنزِّل كام ستارة سودا من اللي أمك حاطاهم في السفرة على قلبك وتسيب عقلك بس اللي شغال لحد ما تخلص امتحاناتك . . أنا عايز قلبك يبقى زي قلوب الفايكنج . . يكون قاسي زي قسوة الأمريكان في العراق كده . . عارف بتوع أمن الدولة . . أوعي يكون قلبك قاسي زيهم أحسن يوصل بيك الحال في يوم تخلص عليا وعلى أمك . . ركز في مذاكرتك وبس دلوقتي . . وإياك تجيب سيرة لأمك عن اللي حصل أو بالذات اللي أنا قولتهولك . . أمك دي قمر وعسل وعليها سكر حتى في السن ده وهي عندها عشرين سنة . .

قال أبي كلماته الأخيرة وتركني ظانا أنني سوف أكمل نومي بعد كلماته وكأن شيئا لم يكن ! . . يبدو أنه لم يعد من أحد على وجه هذه الكرة الأرضية لا يعلم بحبي لسالي غير سالي نفسها !

* * *

* * *

إني لأبغض عاشقا متستترا * * لم تتهمه أعين وقلوب

* * *

يبدو أن الأحداث تتوالى سريعا . . !

هذا اليوم متخم بالأحداث . . ففي تلك الليلة ومع ارتفاع درجة حرارة جسدي التي احسبها قد تخطت السبعين درجة سيليزية ومع زيادة نشاط الكليتين المبالغ فيه، نهضت من فراشي العزيز مجبرا لتلبية هذا النداء اللعين الذي لا ينقطع . .

نداء النداهة . . ؟!

أشعر ببعض التظرف الذي لا يليق بتلك اللحظات المهيبة . . هو نداء الطبيعة بالتأكيد . . ظننت ذلك واضحا منذ البداية !

بعد أن أفرغت مثانتي لتنكمش كأي بالون عضلي يحترم نفسه، وفي طريقي مرة أخرى إلى الفراش، سمعت الهاتف الأرضي يرن . . كان هذا بالطبع قبل انقراضه على يد الهواتف المحمولة وتحوله لقطعة ديكور بالمنزل يُدفَع ثمنها كل ثلاثة أشهر . . مشيت إليه ببطء متثاقلا أدفع جسدي أمامي دفعا وهو لا يكف عن الشكوى وما كدت أصل إلي الهاتف حتى توقف الرنين وظل الهاتف صامتا كالقبر، يتظاهر بالبراءة وكأن صوتا له لم يكن!

اللعنة على الهاتف . . !

اللعنة على ألكسندر جراهام بل . . !

هل ينقصني الشك في مضاعفات لمرضي كالهلاوس السمعية !

يبدو أن الهاتف أراد أن يطمئنني على قواي العقلية التي كادت أن تنهار، فقد عاود الرنين بذلك الصوت الممل الرتيب مرة أخرى . . التقطت السماعة . .

- ألو . . مين معايا ؟!

نطقتها بصوت قد عُجِن فيه النعاس بالألم . .

- أنا سالي يا هشام . .

وقفت مرتعدا ومحملقا في بلاهة في سماعة الهاتف التي سقطت من يدي بعدما قفزت منها في رعب وخوف . . صوت سالي يأتي عبر سماعة الهاتف مطالبا بأن أجيبها . . !

لقد عادت الهلاوس السمعية !

هل جُننت ؟!

قطرة دافئة تفلت من غددي الدمعية حسمت الأمر، فالتقطت سماعة الهاتف وأعدتها إلي موضعها عائدا للفراش.

* * *

(٤)

الأحداث كعادتها مؤخرا تتوالى سريعا . . !

لكم أفتقدت حياتي الهادئة من قبلك يا سالي !

في اليوم التالي وبعدما فشلت في إصلاح وترميم أطلال كرامتي المتهدمة فشلا يناطح فشل النازي في الحرب العالمية الثانية . . قررت ألا أظل حبيسا للفراش باكيا على الأطلال . . قد فعلها قبلي الكثير من الشعراء حتى نضبت غددهم الدمعية وفقدوا حياتهم فعليا أو مجازيا . .

أقنعت نفسي بأن مع مرور الأيام ربما تتغير نظرة سالي لشخصي وتعرف أنني لم أكن أبدا مراهقا عربيدا كما ظنت، أو قليل الأدب وابن كلب كما سمعت . . لذا قررت أن أذهب إلي المدرسة على الرغم من عدم استقرار حالتي النفسية وكذلك الجسدية . . لأقابل سقراط !

سقراط صديقي للقلة الذين لا يعرفونه هو عثة كتب متخصص – إن كان للعثة أن تتخصص – في علوم الفلسفة وعلوم النفس البشرية . . ولا يستخدم للأسف أي نوع من أنواع مزيلات العرق مما يفسر بالطبع قلة من يرتضونه صديقا . . أتمشى معه في طريق العودة للبيت . .

- مالك يا إتش ؟! . . أنت متغير خالص من أول اليوم . . أنت تِعبان؟!

قالها في سخرية !

- ما تقلقش يا ظريف مش بتحول ولا حاجة ولا أنا التعبان اللي أنت تقصده وبغير جلدي . . دي مشكلة صغيرة كده . .

- ومن أي نوع المشكلة دي يا حضرة الرجل التعبان ! ؟

- عاطفية يا جدع . .

لم أنتظر مزيدا من الأسئلة، فقط كنت أنتظر أن يسألني لأحكي باستفاضة ما حدث . .

حكيت له كل ما دار من سالي وعمي – لم لا تحل عليه لعنات السماء – وأبي . . وعندما انتهيت من حديثي . . هرش في شعره الذي لم تمسه المياه منذ عيد الأضحى السابق ثم نظر للسماء مفكرا . . أما من صاعقة تنزل عليه وتحرقه هو الآخر؟!

- سيرشيه لا فام . . . ابحث عن المرأة . .

- بسم الله ما شاء الله طول عمرك فِتِك !

- لأ بجد . . كان المفروض أتوقع كده م الأول . . بس هو أنت فعلا بتحبها يا إتش؟ . . بتحبها بعقلك، ولا قلبك اللي مخليك حاسس كده ؟! وهي تفتكر بتحبك ؟! وهل المجتمع هيتقبل الحب ده ؟! أنت عارف عندك كام سنة ؟!

- يا تلات سنين يا تأبيده ؟!

- إيه . . ؟!

فتح فمه في بلاهة . .

- دي يـا زفـت العقوبـة اللـي هاخـدها فيـك إن مـا خلصتش . .

- لأ بجد أنت فاكر الحب ده هينتهي بالـ . .

- حاااااااسب . .

كانت هذه الكلمة الأخيرة التي دوت كصرخة مني، قبل أن أجذبه بعنف نحوي كي أنقذه – للأسف – من هذه السيارة التي يقودها أحد الشباب بعد أن اشترتها له أمه . .

كانت تلك هي المرة الأولى التي أدرك فيها أن دعائي مستجابٌ وأن السيارة كانت عوضا عن صاعقة السماء . . !

سامحني يا سقراط . .

- تفتكر إيه اللي كان هيحصل لو ما حذرتنيش ؟! كانت العربية هتخبطني ؟! ولا كانت هتقف ولا . .

- أنا إيه اللي خلاني أشدك أصلا . . حد يعيد اللقطة دي م الأول . . يا عم ركز في الموضوع الأساسي . . وما تعش دور الفلسفة والفلقسة ده معايا . .

- آه، طيب . . بص اللي هي عملته معاك ده بيدل إن مظاهر الأنوثة فيها متأصلة قوي . . كفاية منظرها وهي بتتلذذ برفضها ليك . . ده بيدعم نظرية (الطاسة) اللي اكتشفتها بنفسي وبعد كده أثبت فشلها بنفسي برضوا . .

- طاسة ؟!

- أيوة (الطاسة) يا إتش . . مضمون النظرية أن الفرق بين الراجل والست نقدر نختبره بطاسة القلي . . الرجالة اللي زيينا ما بيقدروش يحطوا صابعين

بطاطس في الزيت من غير ما تتشوي إيديهم ويبقوا عاملين زي الموتى الأحياء كده . . عارفهم . .

- قصدك الزومبي . . إنجز . .

- الله ينور عليك . . في الوقت نفسه الستات بيقدروا يتعاملوا مع طاسة القلي زي السحرة بالظبط من غير ما نقطة زيت تلمسهم زي ما يكون بيستخدموا قوى خفية يا جدع أو فيه علاقة ما بينهم . .

- أكيد فيه علاقة . . الاتنين بيضرُّوا بالرجالة . . إنجز بقى . .

- من فضلك ما تقاطعنيش مرة تانية . . لكن النظرية دي فشلت . . لأنها بترتبط بقبل الجواز . . بعد الجواز بقى الموضوع بيختلف والعكس هو اللي بيحصل، وأكبر دليل هو أبويـــ . . قصدي أخويا الكبير.

- وإيه علاقة كل ده بسالي . .

قلتها في نفاذ صبر وأنا أقسم في داخلي أن اشتري سيارة من أموال أمي، وأن يكون هو أول من أدهسه بها . . ظلَّ يحك فروة رأسه في غباء مطاردا فلول القمل التي تلعب السومو في رأسه قبل أن يقول:

- مش عارف . . بص هي دي الفلسفة . . اللي زيك مش هيقدر يفهم حاجة ولو فهمت هتتجنن في الآخر!

لم يكن يشغل بالي في ذلك الوقت إلا سؤال واحد يتيم لم أجد له إجابة!. . لماذا تأخرت صاعقة السماء حتى تلك اللحظة!

* * *

(٥)

هل أصابكم الملل من الأحداث التي تتوالى سريعا . .؟!

إنها حقيقة إجبارية مؤكدة . . فالأحداث لا زالت تتوالى سريعا بالفعل . . فبعدما رجعت إلي البيت – متأخرا – وقد أضعت وقتا كثيرا مع سقراط في انتظار أن تضربه صاعقة من السماء أو أن استفيد منه بشيء . . تناولت غدائي بنهم شديد محاولا أن أبدو طبيعيا، سالي لم تكن تستحق حتى هذه اللحظة أن أُضرب عن الطعام بسببها . . وطالما كانت معدتي دائما لها الأولوية حتى ظهرت سالي في حياتي مرة ثانية . .

كنت في حالة لا تسمح لي على الإطلاق بالمذاكرة فأمسكت بكتيّب صغير كنوع من الترويح عن النفس بعنوان "مصاصي الدماء ومصدري العواء" مستلقيا على الفراش، فأنا لا استمتع بالقراءة إلا في الفراش ودورات المياه !

ما هي إلا دقائق من بداية قراءة ذلك الكتيب الشيق إلا ووجدت دقات خفيفة على باب غرفتي وإذ بالباب يُفتَح وسالي تقف وهي تبتسم ابتسامتها الرقيقة الواثقة المعهودة !

نظرت لها في لوم، فاقتربت مني بخفة الفراشات ووضعت يدها على وجهي هامسة بتلك العبارة التي انتظرتها منذ نشأة الكون . .

- وأنا كمان بحبك يا إتش . .

إنها تصرح بحبها لي دون مواربة !

فكّرت أن أصفعها ثأرا لكرامتي ثم تذكرت أنني لم أكن يوما - ولا أرغب في المستقبل أن أكون - هذا الحيوان الذي يصفع النساء متخيلا عن رجولته!

ولكن هل يتكرم أحدكم ويخبرني لماذا عيناها حمراوتان ؟!

غالبا هي خيالات . . هو انعكاس ضوءٍ لا شك . . .

ولكن كما تعلمتم في دروس الفيزياء السخيفة أن انعكاسات الضوء لا تشكل أنيابا في الفم!

ربما هي لها نفس أسنان كريستين دانست الرقيقة الخلابة . . تلك هي المرة الأولى التي ألتفت فيها لذلك التشابه !

فغرت سالي الرقيقة فاها فبدت الأنياب التي استطالت وأدركت حينها هذا الشحوب في وجهها . . ليست ككريستين دانست . . هي تقول في سخرية:

- أنت لسه واخد بالك يا غبي . . قولي إيه رأيك في الخلود . . ؟!

هي إذا كريستين دانسيت في فيلم (Interview with the vampire) ! ! . . هجمتُ عليها صافعا وجهها بكلتا يدي أن لا ولا ولا وألف لا و . . .

- هشام . . هشام . . اصحى يا هشاااام . .

استيقظت مفزوعا على صوت أمي وهي تهزني بكل ما أوتيت من قوة . .

منذ متي كانت تمارس أمي المصارعة !

كنتُ قد غرقت في محيط بأكمله من العرق وسوائل أخرى ابتلت لها ملابسي كلها دون استثناء . .

من أين يشترون الحفاضات الخاصة بكبار السن !

انتبهت في تلك اللحظة إلي من يقف . . أو تقف إن شئنا الدقة عند باب الحجرة . . كانت هي سالي !

تُرى هل هذا كابوس آخر !؟

لا اعتقد . . هذه سالي بلا أنياب أو مخالب أو أعين حمراء !

سالي كما عهدتها وقد ارتسمت أشد علامات القلق على وجهها . . !

تركتنا أمي لتحضر لي عصير الليمون ليرمم أعصابي المتصدعة . . اقتربت سالي في براءة وكأنها نسيت ما كان منها بالأمس !

- كابوس ؟!
- تقريبا كده . . !
- هشام . . أنا مش عارفة أقولك إيه ع اللي حصل إمبارح . . أنا آسفة والله . . أنا شفت من بعيد واحد كنت فاكراه ابن خالة عم ماما وكنت فاكراه بيبص علينا . . بص، أنت غبي على فكرة إنك مش واخد بالك ده كله . . سامحني يعني . . بس أنا من زمان بحبك قوي على فكرة بس – سوري يعني – أنت اللي غبي.

وتركتني ورحلت في سرعة!

لكم أكره المحادثات المبتورة !

كان الأمر كأن أحدهم قد أخبرك بأنك الوريث الوحيد لمليار دولار، ورثتهم من خالك ملك البن في البرازيل . . وتركك دون أن يخبرك كيف ومتى تتسلم إرثه !

استغرق الأمر مني ثوان معدودات، تلك الثواني التي استغرقتها في صفع نفسي مرة واثنين وثلاثة حتى أتأكد من أن الأمر لم يكن حلما أو كابوسا !

بعدها أدركت أن القدرات البشرية لا تزال لغزا يستعصي على أعلم العلماء حتى من قبل أن يكون مينا نارمر العظيم في مهده رضيعا يبلل سرواله ! . . فما إن نطقت سالي بتلك العبارة وبعد أن أدركت أن الأمر برمته حقيقة لا شك فيها . . قفزت من فراشي على الأرض ومن الأرض للفراش ومن الفراش للأرض كأي شمبانزي في السيرك القومي يحترم نفسه، متناسيا أي ألم جسدي أو نفسي كان يمزقني إربا منذ دقائق، وأنا أصرخ بصوت لا يسمعه أحد غيري راقصا:

"بتحبني . . آآآآه . . . بتحبني . . آآآآه "

أحمد الله أن "بحبك يا حمار" لم تكن قد خرجت للوجود بعد حينها. .

منذ ذلك اليوم صرت أفتخر بكوني غبيا مثلما نعتتني سالي لأنني لم أدرك حبها لي من قبل . .

دائما ما كانت تبرهن لي أنها محقة !

* * *

لا أخفي عليكم كم تغيرت حياتي في الأيام التالية . . الأمر أشبه بجبل الطور يجسم على صدري ثم أُزيح !

لم يعد السر الذي كنت أخفيه في صدري يكبلني . .

لم تعد الصفعة والإهانة برمتها تقهرني وقد التمست لها سبعين عذرا . .

أنا الآن حرٌ طليقٌ . .

اتجهت بكامل طاقتي إلى المذاكرة حتى يتحقق لي ما أريده وحتى أُثبت للجميع أن العاطفة والمشاعر طوال الوقت هي حافز، بالطبع قد يسيء البعض استغلاله فيعرقله . . ولكن يأتي الفشل كعقاب عادل لهم لسوء استخدام هذا الحافز !

ستخيب توقعاتكم، فلم يتغير التعامل فيما بيننا . . كنا كما كنا أصدقاء . . نقتصد في عبارات الحب والغزل لندخرها لمستقبل بيد الله وحده.

كان أبي بالطبع قد شعر أن المياه قد عادت لمجاريها، ولكنه لم يفاتحني إطلاقا في الموضوع مرة ثانية . . كم كان أبي رائعا كعهدي به!

كانت أوقات الراحة بين المذاكرة – التي تحددها سالي بمفردها – ثرية للغاية . . فقد كنا لا نتحدث إطلاقا في الحب

ومستقبلنا والبيت الذي سنبنيه حجرا حجرا، ولكن كنا نتحدث في السياسة والتاريخ والأدب والرياضة والعلوم!

صالون ثقافي شامل يوميا لا يتطلب حضوره سفرا أو مجهودا !

بحكم ثقافة كل منا . . كانت تحدثني عن أمجاد رمسيس الثاني فأحدثها عن النظرية التي تزعم أن الكائنات الفضائية هي التي ساعدت المصريين القدماء !

تحدثني عن عصر النهضة في أوروبا . . فأحدثها عن محارق الساحرات في العصور الوسطى!

أحدثها عن أمرؤ القيس وليلى العامرية . . . فتحدثني عن مجازر التتار في بلاد المسلمين !

أحدثها عن ابن زيدون وولادة بنت المستكفي وكيف – للأسف الشديد – صار التنائي بديلا عن تدانيهما وكيف ناب عن طيب لقياهما تجافيهما. . فتحدثني عن سقوط الأندلس !

هل من أحمق قد ظن فينا أننا في أشد مراحل المراهقة انحرافا ! !

هل من أحمق انتظر أن أراودها عن نفسها وأغلِّق الأبواب بقميص سيُقَد من قُبُلٍ ؟!

إلى جانب المذاكرة، كنت أساعدها كثيرا بحكم خبرتي في تمرينات الكاراتيه . . فقد كانت تحتاج بشدة لدمية تدريب . . أنا دمية تتورم من أجل أن تنجح سالي وتتقدم للأمام . . !

كان حبها في قلبي مع الأيام يكبر وينمو . . حبٌ عذريٌ طاهرٌ بريءٌ حتى ضاق بقلبي وانسكب على كل ما حولي في

هذه الدنيا لأرى كم أصبح الوجود جميلا وصوت العندليب يتردد في أذني دوما . . .

"حبك نار مش عايز أطفيها . .

ولا أخليها دقيقة تفوتني ما احسش بيها

نار يا حبيبي نااااار"

* * *

* * *

وبلغت بعض مآربي إذ حدثت * * عيني في لغة الهوى عيناكِ

* * *

يبدو أن الأحداث أصابها الإرهاق ولم تعد تتوالى سريعا . . !

ها هي نتيجة الثانوية العامة قد ظهرت . . واختلطت أصوات الزغاريد والصراخ والبكاء والعويل في أنحاء مصر خلال سيمفونية متناغمة وكأن المايسترو البارع الذي يقود عزف السيمفونية هو المايسترو نادر عباسي . .

تختلط الأصوات فلا تدري هل هو فرح فتفرح معهم أم مأتم فتحزن عليهم !

يحسبونها – خطئا – نهاية الكون !

لم يكن مجموعي يعلن صراحة عن الكلية التي سأدخلها وشاء كهنة التنسيق في معبدهم المقدس لدى الآباء والأمهات أن يضعوني في كلية الطب البيطري، ولم أحزن على الإطلاق إذ كنت أرى حينها أنه لا فرق عندي بين علاج الإنسان وعلاج الحيوان . . باستثناء عدم تخصص أطباء بيطريين - حتى الآن - في علاج مشاكل التخاطب بالإضافة للرقي الأخلاقي الذي أصبح يميز بني الحيوان . . أما أبي وأمي فلم يكن لهما أي تعليق على هذا الأمر سلبا أو إيجابا . . تركوني منذ الصغر أعتمد على ذاتي وأتحمل تبعات أفعالي ونتائجها . .

أما الأخ هيثم . . . من هو هيثم ؟!

عفوا، الأخ سقراط بعد أن يئست من أن تحل عليه أي صاعقة من السماء قد حصل على مجموع مرتفع ولكنه قرر الالتحاق بكلية التربية – قسم الفلسفة! . . هو حر في اختياره!

ماذا عن سالي ؟!

هـي كـادت أن تصـيب أبويهـا بالشـلل الرعـاش والشـلل النصفي والشلل الكلي !

فعلى الرغم من المجموع المرتفع جدا الذي تحصلت عليـه، إلا إنها قررت من تلقاء نفسها أن تلتحق بكلية الشرطة !

نعم . . كلية الشرطة !

وعندما سمعت منها هذه الكلمات ترسخ لها في ذهني فورا صورة عجيبة لها وقد قصت شعرها الطويل النـاعم الذي أطار صوابي ليصبح قصيرا جدا بعدما حلقتـه على الدرجـة الأولـى بمكاينـة الحلاقـة الخاصـة بأبيهـا عمـي سـالم . . ترتـدي ثيـاب البحرية الأمريكية – المارينز أحرقهم الله – وتقف أمـام قائـدها ناظرة إلى السماء وتطلق صيحتهم المميزة الحماسية

(Sir. . yes, sir)

يصيحون بها بصوت يتناقض تماما مع بكـائهم وعويلهم أمـام رجـال المقاومـة فـي أي دولـة يحتلونهـا زاعمـين تحريرهـا مـن براثن الديكتاتورية البغيضة ليتقاضوا ثمنا لذلك أطنانا من النفط عالي الجودة مقابل آلاف الأمتار المكعبة من دماء الأبرياء . .

هم أوغاد يفتقدون الشرف !

لم أكن أتخيل سالي في هيئة غير هيئتهم العسكرية !

كيـف تلتحـق سـالي بكليـة الشـرطة ؟! . . تسـتيقظ صـباحا لتحلـق شـاربها ولحيتهـا وتعود مسـاءا وهالـة بنفسـجية تـزين إحـدى عينيهـا أو كليهمـا ودمـوع غزيـرة تنسـكب مـن عينيهـا العسليتين المتورمتين فأسمح لهـا أن تـتمخط فـي أكمـامي باكيـة نائحة:

- ضربوني يا بعلـــــــــــي . .

لم أكن أتخيل أن يضربها أحدٌ أو يفكر فقط في ذلك وأنا حي أرزق على هذه الأرض . .

مهنة محفوفة بالمخاطر . . ولكن عليها هي فقط ألا تحاول القبض على خط الصعيد أو أي لص يتعاطى ويتغذى على الترامادول والأبيتريل ويتنفس الحشيش والبانجو، ولا تحاول بالطبع الاقتراب من أي رجل من رجال الأعمال الكبار الذين يدخنون السيجار ويستند النظام الحاكم على أكتافهم . . لتبتعد عنهم سالي لأضمن لها السلامة حتى تصل لسن المعاش !

احترم بشدة الفتيات اللاتي يتخذن القرار بدخول كلية الشرطة أو الكليات العسكرية عموما خدمة لهذا الوطن . . وأحذيتهن بكعبها العالي فوق رأسي ما دمن على العهد الذي قطعهن بالحفاظ على تراب هذا الوطن المقدس . .

حمدا لله، بعد الضغوط الكثيرة من والديها ومني . . تنازلت سالي مشكورة عن رغبتها التي كتمتها لسنين وصدعت بما تؤمر وأعرضت عن كلية الشرطة لتلتحق بكلية التربية أيضا وبقسم التاريخ على وجه التحديد !

* * *

رحلة عبر التاريخ . . الحلقة الثانية:

عندما استرد وعيه وجد المكان من حوله مظلما!

عندما حاول أن ينهض اكتشف أنه مكبلُ اليدين والقدمين تماما!

كل ما يتذكره هو أنه كان يتناول العشاء مع هيلاميس الجميلة زوجته!

لم تطل تساؤلاته كثيرا إذ غمره ضوء الشمس فاكتشف أنه يرقد داخل تابوت خشبي ووجه زوجته الصبوح يطل عليه من أعلي . .

- ماذا هناك يا حبيبتي هيلاميس ؟!

جائته الإجابة في صورة بلطة تهوي على كوعه الأيمن لتفصل الساعد تماما عن عضده وتتدفق دماءٌ ساخنةٌ يشعر بها ولا يراها لتملأ التابوت، ثم لم تبخل عليه هيلاميس الجميلة بالتفسير حين قالت ساخرة:

- ألا يعرف شاو- رع العظيم ماذا هناك ؟! . . كل تلك السنوات وأنت تخونني مع تلك البطة !

كل ما يتذكره شاو- رع أنه لم تكن له أبدا علاقة بأي بطة . . هو يعرف أن شامور اللعين له علاقة شاذة بالبقرة التي يرعاها . .

- أي بطة تلك أيتها المجنونة ! !

- تون- فاو أيها الأحمق . . كل تلك السنوات وتحسبني غافلة عما يدور بينك وبينها . . ماذا يعجبك بها؟!

ويبدو أن هيلاميس الجميلة تمارس رياضة المبارزة بالبلطة لأنها أعقبت جملتها الأخيرة بضربة عنيفة من البلطة على ركبته اليسرى لتفصل الساق تماما عن الفخذ، وهو يعوي كأي شيطان مريد يتلوى في أعماق الجحيم صارخا:

- كيف يمكن أن يصل خيالك لهذا ! ! . . ليس لي علاقة بتون فاو . . إنها حقا بطة . . أنا أحبك أنت . . أقسم لك برأس آتون أحبك أنت . . أعرف مصيري المظلم ولكن مع هذا أحبك أيتها المخبولة. .

- حقا يا شاو- رع !؟ . . حمدا لآتون أنني قد عرفت بحبك وتأكدت منه . . وتأكدت أكثر بأنك لم تخنني بالغيب . . إنه الشك اللعين . . ولكن أخبرني يا حبيبي . . ماذا سأفعل بك من دون ساق وذراع . . الآن سترقد في معدة تماسيح النهر المقدسة بعدما تأكد قلبي وعقلي من حبك لي . . وأعدك أن أذهب للمعبد كل صباح وأدعو لك . .

* * *

جريدة زوسر – نسخة البردي - بردية الحوادث:

"اختفاء شاو- رع أحد أعيان طيبة في ظروف غامضة والشكوك تدور حول زوجته، وقد صرح . . . "

المرأة في العصر الفرعوني

* * *

(٦)

دارت عجلة الأحداث سريعا داخل الحرم الجامعي . . لم يكن قد مر أكثر من إسبوعين فقط منذ بداية الدراسة حتى كنت أتوجه مع عمي سالم والد سالي إلى المستشفى الخاص القريبة جدا من الجامعة لزيارة (أيمن) أحد الزملاء القدامى وفي ذات الوقت هو زميل سالي في كلية التربية.

جميعنا بلا شك نوقن تمام اليقين أن أسوأ أيام الدراسة بالجامعة هي الأولى حيث تصطدم ببعض طلاب الفرقة الأولى من الشباب والفتيات الفارين من جحيم الثانوية العامة معتقدين بشدة أن الجامعة ماخورٌ للعربدة والسفور والمجون والخلاعة المقننة . . يصبهم الإكتئاب إن مر أكثر من يومين ولم ينجحوا في اصطياد فريسة من الفتيات أو لم يقعن فريسة لأحد الشباب!

كان هذا في أيامنا قبل أن تأتي الأيام الحالية حيث يرتدى الرجال ملابس الفتيات علنا في الشوارع عاقدين طرحة أخواتهم حول أعناقهم ضاربين بأطرافها على جيوبهم فلا يصبح حجابا شرعيا إلا بأن يدنون عليهم من جلابيبهم . . يزعمون كذبا أن تلك هي (الموضة) . . هي (موضة) تصلح للنساء لا شك!

كان الشباب في أيامنا يضربون شعورهم في الخلاط ثم يمررون به تيارت كهربائيا عالي الفولت مستمد مباشرة من محطة كهرباء السد العالي . . يطيلون السالفين ليتدليا شاربين من بحر لا وجود له كطريقة كتابتنا في المرحلة الابتدائية تماما!

تلوك أفواههم العلكة بشراسةِ رعاة بقر همج . . يتسكعون بين مبان الجامعة ولا يكفون لثانية عن البصق على الأرض كالأوغاد وكأن اللعاب في حلقهم معين لا ينضب !

تنسد آذانهم بسماعات تصم آذانهم بأغنيات أجنبية لا يفهمون منها شيئا إلا إيقاع " *بوم – طاخ – طاخ – بوم – طيخ – فششش* " !

يفعلون كل ذلك ويعتقدون أن الشيطان ذاته يحميهم بعدما قدموا له فروض الطاعة والولاء ليعطيهم الحق في مغازلة أي فتاة!

تراهم فتشفق حينها على مستقبل هذا الوطن في زمن لم تكن قد رأيت فيه الأجيال التالية الأشد سوءا!

من حظه العاثر كان هذا الـ(أيمن) من تلك الفئة غير القليلة من الشباب . . ومن كوارث سوء حظه ألا يختار من بين فتيات مصر قاطبة ليغازلها غير سالي!

كل تلك الفتيات الرائحات العائدات في محيط الجامعة يتركهن ويوسوس له شيطانه المريد أن يختار سالي!

لكم يبغضه هذا الشيطان!

بالطبع يمكنكم تخيل ما حدث!

سالي كانت تنتظر مثل تلك الفرصة الرائعة لتقتص لفتيات مصر جميعهن اللاتي يتعرضن لمثل هذه المضايقات والتحرشات غير الآدمية!

فقط كانت تنتظر الإشارة!

وجاءت الإشارة من هذا الأحمق . . ظلت سالي لمدة لا تقل عن النصف ساعة تطبق على جسد أيمن عمليا كل ما تعلمته

من دروس الكاراتيه وكتيبات الملاكمة و(صلّح) . . كل هذا ولم تصل ذرة غبار يتيمة من هذه المعمعة المصغرة إلي كعب حذائها حتى عن طريق الخطأ!

الكل وقف يشاهد في صمت!

الفتيات يشع وجوههن بالفرح والسعادة والفخر بأن سالي تلك من النساء . . الشباب يقف مذهولا ما بين مؤيد لموقف سالي مؤمنا بشعار "لا للتحرش" . . وبين من يخشى التدخل، حتى انتهى الأمر وانصرفت سالي راضية قانعة!

لقد أنقذت العناية الإلهية هذا الوغد مني إن كنت موجودا حينها . .

وما علم والد سالي من ابنته بالأمر حتى توقع النتيجة مثلي . .

طلب مني يومها بعد صلاة المغرب أن أذهب معه لمواساة أهل الفقيـــ . . أقصد المصاب، ولطلب التصالح والتكفل بمصاريف العلاج . . ولكني أقنعته بأن نذهب وكأننا نهددهم بعمل محضر بتحرش ابنهم بسالي . . لن يمر الأمر هكذا ببساطة وسنزج به في غياهب السجون وسنطالب بتعويض مالي ضخم، ولن يفلت هذا الوغد من المؤبد وإن وكَّل (الديب السحلاوي) شخصيا للدفاع عنه!

* * *

* * *

لا تمازحن، فإن فرحت فلا يكن* * فرحا تضاق به إلى سوء الأدب

واحذر ممازحـــة تعود عداوة * * إن المـزاح مقدمـة الغضـــــب

* * *

ما إن دخلنا غرفة أيمن بالمستشفى حتى ظننت أننا قد دخلنا – خطئا – إحدى قاعات المتحف المصري! . . ففي أحد الأركان كان يجلس رجل عجوز ظننته في بادئ الأمر رمسيس الثاني وقد بُعِثَ من جديد، ولكن هذا الرجل – للأسف – يبدو أنه قد وُلِدَ قبل رمسيس الثاني بقرون على أقل تقدير!

كان هذا الرجل هو والد أيمن الذي نخر الدهر عظامه بعدما قضى جل عمره باذلا الغالي والنفيس في تربية هذا الوغد الشاب الذي لا يكترث بشقاء أهله من أجل الإنفاق على تعليمه!

لكم احتقر من هم مثل هذا الشاب !

فكرة أننا قد دخلنا المتحف المصري لا تريد أن تتلاشى من ذهني . . بل يؤكدها تلك المومياء التي استقرت على الفراش وقد تم لفها بأكملها بأربطة الكتان!

وفجأة . . صدر عن تلك المومياء أنين خافت تلاكمت له ركبتاي!

أحيانا تصبح الساقين في تماسك الجيلي ! . . حقيقة علمية تأكدت منها في تلك اللحظة.

ترى هل تنهض تلك المومياء ! ؟

أنين آخر خافت !

لطالما أثار فيلم *The Mummy Return* رعبي !

المومياء تتحرك!

حسنا، حسنا . . لا تخافوا إنه من كان يوما ما يدعى (أيمن) !

الأطباء وهم يعيدون بقايا هذا الجسد إلى طبيعته قد صنعوا فرنكنشتاين آخر !

بذلوا جهدا يضاهي جهد سيزيف بن إيولوس في رحلة رفعه لصخرته إلى قمة الجبل !

لو قتله الأطباء قتلا رحيما، وحاول أباه إنجاب آخر لكان الأمر أسهل كثيرا !

حسنا، الميكروفون الآن مع عمي سالم . . ألقى مرافعته بكل ثقة والشرر يتطاير من عينيه . . هدد وتوعد وهاج وماج وأخذهم بصوته قبل أن يغلبوه . . فانتهى الأمر باعتذار من والد أيمن وإقرار بخطأ ابنه المراهق المستهتر الذي لا يعرف كيف يتعامل مع بنات الناس . . وتكرم عمي سالم مشكورا وتقبل الاعتذار!

- أنا (آشف) يا عمي والله . . (أقشم) بالله ما هفكر (أعاكش) (شالي) مرة تانية . .

كان هذا بالطبع (أيمن) في اعترافه الأخير . . وقد فهم عمي سالم الجملة بسهولة دون الاحتياج لأحد أحفاد الأخ (سمبليون) !

* * *

كم كانت سعادتي كبيرة للغاية بما فعلته سالي مع أيمن . . قالت لي يومها أنها لا تقبل أن يغازلها يوما أحدٌ غيري . . بل ومن شدة فرحتها صارحتني . .

- تلاقيه فكر نفسه إتش علشان أبصله يعني . .

ارتسمت لكلماتها قلوب طائرة مرفرفة بأجنحتها من حولنا . .

كم أعشق تلك اللحظات النادرة التي تصارحني فيها سالي بما تخفيه عني وتدخره لي في المستقبل . .

كم كنت فخورا بها . .

هي ليست لقيمة سائغة سهلة الهضم . . ليست تهادن أو تسامح في حقها . .

هي سالي كما عهدتها . . وكما أحببتها . .

كانت المرحلة الجامعية هي أكثر الفترات رومانسية في ماراثون حبنا المشترك . . كنت دائما اترك كليتي في الأوقات الخالية من المحاضرات والسكاشن – أو هكذا كنت أخبرها ككذبة بيضاء - وأذهب لمقابلتها في كليتها التي لم تكن تبعد كثيرا عني . . كان واضحا للجميع نبتة الحب البريئة التي تنمو بسرعة فيما بيننا . . لم نكن نتفارق كثيرا. . سمعت أن إحداهن تصفنا بسمكة القرش وقملتها . . قطعا هي القرش وأنا القملة . . لا يحتاج الأمر إلى توضيح!

ما أجملها من قصة حب التي نحياها سويا . .

رومانسية بلا حدود . .

رومانسية لم يعرفها التاريخ من قبل . .

فاقت قصة حب عنترة العبسي لعبلة . .

فاقت قصة حب امرؤ القيس لليلى العامرية . .

فاقت قصة حب روميو وجولييت . .

تعدت بمراحل قصة حب جاك وروز . .

فلتخبرني أن أروع قصة حب هي ما دارت بين حسن ونعيمة وسأقسم لك وأغلظ القسم أنك مخطئ !

فاقت رقيا وجمالا قصة حب مختار وعفاف . . من مختار وعفاف؟! . . لم التدقيق المبالغ به هكذا !؟ . . لابد من مختار وعفاف عاشا أو يعيشا أو سيعيشان قصة حب . . أؤكد لك بشدة أنها لن تقترب على الإطلاق من قصة حبي لسالي وحبها لي!

ذلك الحب الذي أضفى على الحياة جمالا فوق جمالها . . أيامها شعرت ذات الشعور الذي سيطر على سعاد حسني وهي تغني:

"الحياة بقى لونها بمبي . . وأنا جنبك وأنت جنبي"

كل شيء في حياتي أصبح ورديا له رائحة الحب إن كان للحب رائحة!

هذه الوردة الشديدة الاحمرار تذكرني بوجنتي سالي . .

كلما نظرت إلى الشمس وقت الغروب أراها تبتسم لي في خبث قائلة: "هنيئا لك بسالي . . أحسنت اختيارا" . .

فليأخـذانا لمدينـة غـراس بمقاطعـة بروفـانس الفرنسـية ليعتصروننا في مصنع شانيل للعطور ليستخلصوا منا عطرا فريدا اسميه "عشق" . .

كلما رأيت نارا متقدة تذكرت نار الشوق التي تلتهم قلبي وعقلي في غيابها . .

حتى عندما اقرأ عن مصاصي الدماء أتذكر حاجة بعضهم إلى أنثى ترافقهم الخلود ويا حبذا لو كانت مثل سالي . . وأتمنى لو أن لي الخلود فقط إلى جوارها . .

حقا إنه الحب كما ينبغي له أن يكون . .

* * *

* * *

وقولا لها يا منية النفس إنني * * قتيل الهوى والعشق لو كنت تعلمي

* * *

(٧)

في كلية الطب البيطري تكثر النقاشات العجيبة . . تلك حقيقة لا خلاف عليها . . كنت أقف في نهاية اليوم مع أحد الأصدقاء نتناقش حول أحد المسائل التي وقع عليها بيننا خلاف علمي حاد، فلقد اختلفنا حول أسباب وفاة الأسماك البلطية البالغة بسبب المبيدات الحشرية . . هل يكون بسبب الاستنشاق عن طريق الخياشيم أم بسبب الابتلاع لهذه السموم الذي يؤدي للوفاة!

كان ذلك حتى أقبلت مروة، وهي لمن لا يعرفونها واحدة من أجمل فتيات كلية الطب البيطري كيفما اتفق جميع طلابها، وتعاني الكلية بسببها من اتساخ دائم لأرضياتها بفضل اللعاب الذي يسيل من أفواه الشباب حين تمر أمامهم مروة!

هي في نظري أفعى متحدثة يصيب سمها كل من يقترب منها . . قد يكون رأيي هذا الذي يثير سخرية أصدقائي بسبب أني لا أرى في الوجود من هي أجمل من سالي الرقيقة . . سالي هي ببساطة قلبي . . هل هناك بينكم من لا يهيم عشقا بقلبه الذي يضخ في جسده الحياة!

كانت مروة هذه لا تتقبل فكرة أن هناك رجل على وجه البسيطة لا يهيم بها حبا وعشقا وتزوره في أحلامه زيارات سرية +١٨ ويسيل لها لعابه متمنيا فقط أن تعطف عليه بنظرة أو تتكرم عليه بابتسامة!

وكان أنا هذا الرجل !

لذا كانت تكرهني بشدة، وتحاول التحرش بي طوال الوقت . . هـي فتـاة تافهـة ببسـاطة تجـد سـعادتها فـي التحـرش بـي ومضايقتي حتى يتحول وجهي للأحمر خجلا واتركها منصرفا!

- ما تعملها غسيل معدة ولا شربها لبن يا دكتور إتشو . .

هكذا اقتحمت النقاش قائلا بسخرية لاذعة سخيفة.

- تصدقي فكرة فاجرة . . . نياهاهاهاهاهاهاااا

قالها صديقي الوغد في سخرية وانصرف وتلك الابتسامة الخبيثة على وجهه.

أقف كذبابة مسكينة محاصرة بين خيوط عنكبوت يتأهب لاغتصابها!

- هو حد قالك يا إتش صحيح إنك مز . . لا تقولي بقى براد بيت ولا جورج كلوني ؟!

- إحم . . مممم مروة هو إنتِ للدرجادي شايفاني بارد قوي كده !

قلتها باقتضاب محاولا الانصراف، وقد رأيت بداية مستقبل مظلم قادم من ورائها، ولكنها التقطت أحد الكتب من يدي وأكملت . .

- ما جاوبتنيش على سؤالي يا إتش.

- ما أجاوبك أنا أحسن يا كتكوتة !

هذه هي بداية المستقبل المظلم التي رأيتها قادمة . . لقد جاءت سالي . . كانت تقف خلف مروة واضعة يدها في خصرها وأنا أقف راجيا الله أن ينتهي هذا الموقف على خير . .

- خلاص يا سالي السكشن مدوخها وتلاقيها ماكالتش م الصبح ومهبطة ومش دريانة بتقول إيه . .

- اسكت أنت يا هشام دلوقتي إما نشوف البرص دي عايزة ايه!؟

- قالتلك اسكت أنت يا هشام بقى . . اسمع الكلام يا جدع . . يووووه . .

قالتها مروة اللعينة في سخرية . .

البعض يصر على أن يحفر قبره بيديه دون أن يدري . . !

حسنا، لألخص ما حدث . . كان هناك الكثير من "احترمي نفسك" و"أنا محترمة غصب عنك، بصي لنفسك" . . "هبص لنفسي وهفرج الناس عليكي" . . ثم دفعة فجذبة فلكمة فركلات فصفعات . . . ألخ ألخ ألخ.

لم يكن هناك من الطلاب الكثير في آخر اليوم، ولا تواجد نهائيا لقوات حفظ السلام . . أقصد بالطبع الحرس الجامعي الذي كان ينتشر في أنحاء الجامعة بحماس شديد قبل طرده شر طرده خارج أسوار الجامعات . . لقنتها سالي درسا يكفي عمرها كله ووضعته بنفسها عنوة قرطا ثمينا في أذني مروة!

وبعدما انتهت رحلنا في هدوء، فقد كان هذا هو الهدوء الذي يلي العاصفة وما تخلفه من دمار شامل لا يبقى ولا يذر!

لك الله يا مروة !

تعرضت لتحقيق في اليوم التالي وأسئلة كثيرة بداية من قائد حرس الكلية حتى وكيل الكلية لشئون التعليم والطلاب ثم العميد . . الكل يسألني عن سالي وعلاقتي بها وماذا جاء بها

إلى الكلية . . فأنكرت معرفتي بسالي تماما قبل أن تغرب شمس هذا اليوم ثلاث مرات . . حتى مر الأمر بسلام!

* * *

(٨)

كانت سالي العاشقة للتاريخ تعذبني به حتى صرت أغار منه . . كانت تهيم عشقا بالتاريخ الفرعوني . . كنت أغار كثيرا من إعجابها بمينا نارمر ورمسيس الثاني وتحتمس الثالث وسيكننرع !

أوجديني يا سالي في نفس بيئتهم ولسوف ترينني ملكا متوجا على مصر الموحدة حيث تترامى أطراف مملكتي شرقا حتى التبت وغربا حتى سواحل الأطلنطي وشمالا حتى يتجمد جنودي من جليد القطب الشمالي وجنوبا حتى تلتف منابع النيل حول قبضتي لجاما لهذا النهر الجامح . . فقط فليعطني أحد ما فرصتي ويعيدني لهذا العصر حيث التعليم كان تعليما بحق لا إضاعة للوقت في تقسيم هذا الخط المستقيم اللعين من الخارج! . . حيث المجهود المبذول ينال التقدير والعرفان . . لم تكن القاعدة المصرية الشهيرة " اشتغل قليل . . تغلط قليل . . ممكن ما تتجازاش . . أشتغل كتير . . تغلط كتير . . تتجازى طول الوقت" قد اكتشفت بعد !

فلتعطيني عمالة ماهرة تقدس العمل وتؤمن أنها عبادة تقربها إلى الله زلفى ولأبنين أهراما تعانق قمتها قلب الفضاء!

أين نحن من عصر الفراعنة العظام !

لك الله يا مصر !

كانت سالي قد طلبت مني ذات يوم أن أعد لها بحثا عن الملكة حتشبسوت . . لديها مشكلة ما بوصلة الانترنت كما قالت وحسبما فهمت على الرغم من أنها تظهر أحيانا (أونلاين) على المرحوم الهوتميل ماسينجير قبل أن يوارى الثرى الرقمي رحمه الله!

كان الانطباع الذي يرتسم على وجهي حين تسألني سالي عن أي شيء في التاريخ الفرعوني هو ذاته الذي يظهر على وجهك حين يسألك أي شخص عن أول من عصر ليمونة في التاريخ! . . ولكني بدئت أحبه مؤخرا . . أحب نضال أحمس لطرد الهكسوس من مصر والذي اكتشفت أنه مجهود لعائلة كاملة أطلق سهم البداية فيه سيكننرع فتبعه كاموس الذي رضع من ثديي تيتي شيري العظيمة ثم انتهاءا بالبطل المظفر أحمس . . لكن اختصرت مناهج التعليم البائسة في بلادنا كل هذا في شخص أحمس المحظوظ!

أحب أن اقرأ عن هذا الخلاف الذي نشب بين إخناتون وتحتمس الثالث . . ماذا ؟! . . لم ينشب خلاف بين إخناتون وتحتمس الثالث ! . . حسنا، لقد اتفقنا مسبقا أن معلوماتي التاريخية عن تلك الحقبة ضعيفة جدا . . هي معدومة إن شئنا الدقة.

وبعيدا عن إخناتون وتحتمس السادس، فعندما أمرتـ . . استسمحتني سالي أن أبحث لها عن معلومات عن حتشبسوت، عكفت ليومين – كفاعل خير- أعد لها هذا البحث عن السيدة الفاضلة حتشبسوت وكل ما يتعلق بها . . حتى اسم مرضعتها ذاتها الدادة أم سينكرعتون سجلته في هذا البحث!

هي خمسة وعشرون صفحة كتبتها وقد بذلت قصارى جهدي كي يبدو خطي مفهوما وبعيدا عن الهيلوغريفية التي لا أجيد

كتابتها . . وضعت الأوراق في ملف أنيق كنت أعتز به عليه صورة لواحد من الموتى الأحياء يرتدى الزي الفرعوني ويدخن البايب!

ذهبت لسالي وابتسامة عريضة على وجهي وأنا أُمني نفسي بكلمات الشكر والثناء التي ستغرقني بها سالي فأحلّق بين السماوات السبع وألمس بلوتو الابن الضال بأطراف أصابعي . . وأكتفي ساعتها بالابتسام بثقة فقط قائلا في عدم اكتراث "لا شكر على واجب".

وبالفعل كما توقعتم . . أمسكت سالي بالملف وجعلت تقلب صفحاته بتمعن وإمارات الدهشة تشق طريقها نحو قسمات وجهها الرقيقة . .

ترى كيف ستبدو إن استمر حاجباها الدقيقان في الارتفاع دهشة حتى يتواريا خلف منابت شعرها ! !

- إيه ده يا هشام ؟!

قالتها في تعجب . . لم تكن تتخيل كل هذا الإتقان بالطبع . . ليس الجميع بقادرين على اتباع هذا المنهج في البحث والتدقيق . . دائما هي تسيء الظن بقدراتي . .

- كل شيء يا حبيبتي عن حتشبسوت . .. من أول ما أتولدت لحد ما الدود ماسابش حتة في جتتها . . كل حاجة . . أول كلمة قالتها . . اسم اللي غيرتلها البامبرز . . اسم أول تمساح خنقته . . كل حاجة يا بنتي زي ما بقولك . . مش هقولك ع المجهود اللي . .
- حد قالك قبل كده أنك غبي !
- لأ . . محدش قالي كده قبل كده . . غيرك!

- طيب . . أحب أأكد ليك للمرة الألف يا هشام إنك مُصر تثبتلي أنك غبي يا أخي.

ثم ازدادت عنفا وارتفع صوتها، وانتفخ الوريد الوداجي في عنقها حتى خفت عليها من أن ينفجر أو أن تصاب بجلطة دماغية تودي بحياتها . .

- كنت فاكرة إني لما أطلب طلب صغير من اللي بيحبني وأنا أصلا معتقدة غلط إنه بيحبني . . إنه هيصدق ينفذ ليا الطلب الصغير ده علشان الحب اللي بينا يلاقي وسط مناسب وحاجة يتغذى عليها علشان يكبر أكتر . . مع أن طلبي ده مش هيكلفه إلا شوية وقت وشوية مجهود لا يذكر أصلا . .

ثم صرخت بصوت سمعه أهالي طوخ طنبشة الذين أزعجناهم كثيرا وقد بلغ الضغط على أوردة عنقها مداه في أي مشهد يتمناه مصاصي الدماء المحترمين . .

- لكنك بتثبت ليا بالدليل القاطع أنك بتكرهني ولا كأنك سقراط وأنا الست مراته اللي كانت مطهقاه وقارفاه في عيشته يا هشام!

الآن وصلنا إلى منتصف المسافة ما بين محطة جنون الغضب الذي يؤدي لجرائم القتل ومحطة الانهيار العصبي الذي قد يؤدي لانتحار، لقد وصلت سالي إلي المحطة الأخيرة التي لابد من أن تنهي بها أي أنثي - تعتز بأنوثتها - رحلة انفعالها . . لقد أجهشت بالبكاء لتتفجر ينابيع الدموع من عينيها !

وقفت أرمق حبات اللؤلؤ التي تنحدر من عينيها عاجزا عن فعل أي شيء . . ناهيكم عن عدم مقدرتي على فهم الخطأ الذي

قد ارتكبته الذي يضمني لطابور الأغبياء عبر التاريخ عن جدارة!

- سالي أنت عارفة ومتأكدة إني بحبك . . ده مش موضع خلاف أصلا . . بس قوليلي أعمل إيه بس علشان أرضيكي وأنا اعمله ورحمة حتشبسوت يا ستي . .

قلتها في هدوء يقاوم نفاذ الصبر الذي يدهمني.

- يا هشام . . أنا طلبت منك . . كام ورقة . . عن رحلة حتشبسوت . . لبلاد بنط . . وأنت جبت ليا . . خمسين ألف ورقة عن حتشبسوت . . منها ورقة واحدة بس عن رحلتها لبلاد بنط!

قالت الجملة متقطعة واقفة بين كل بضعة كلمات كي تتمخط وتلتقط أنفاسها التي شتتها البكاء . .

- يا ستي والله أنا آسف للمرة الخمستاشر بعد الخمسميت دشليون ألف . . غلطة بقى ما أنتٍ عارفاني غبي . .
- ما تقولش . . على نفسك . . كده . .
- ماشي . . أنت اللي تقوليها بس أنا عارف . . قوليلي أعمل إيه ليكي وأنا اعمله وبتركيز المرة دي بس ننول رضاك يا جميل . .
- أنا محتاجة شوية معلومات عن رمسيس التالت . .
- ده راح بلاد بنط برده ؟!
- يووووه يا هشام . .
- خلاص يا ستي روقي كده . . أجيبلك لمون يهدي . . كركديه يرخي طيب ؟

نظرت لي في غيظ . . نهضت مبتسما رغم أنفي وفي يدي البحث الذي أحضرته معي . .

- لأ سيب البحث ده . . ممكن احتاجه في المستقبل يعني . .

انصرفت سعيدا لأنني سأنال شرف أن أفعل شيئا يسعد سالي التي أحبها . . مع علمي التام أني كتبت كثيرا جدا عن رحلة خالتنا الحاجة حتشبسوت لبلاد بنط!

* * *

* * *

وما ذرفت عيناك إلا لتضربي * * بسهميك في أعشار قلب مُقَتَّلِ

* * *

كانت اللجنة الثقافية باتحاد طلاب كلية التربية - الكلية التي تشرف بدراسة سالي بها – قد أعلنت عن ندوة بعنوان

"***تطور الحضارات وارتباطها بالأساطير الشعبية***"

قرأت الإعلان عن هذه الندوة أثناء انتظاري لحبيبتي سالي أمام كليتها لمدة قصيرة تقترب من الساعتين كالعادة، جاءت سالي ووجهت لي الدعوة لحضور تلك الندوة باعتبارها أحد الأعضاء البارزين باللجنة الثقافية باتحاد طلاب الكلية.

قبلت الدعوة وكأن لي خيارا آخر !

كانت بالطبع فرصة لا تعوض أن أحضر محاضرة رائعة كتلك وفي نفس الوقت لأكن إلى جوار سالي، حضرتها وسالي واعترف بأنها حقا كانت رائعة وشيقة وثرية وتبتعد تماما عن الملل المعتاد للندوات الجامعية التي يكون دائما المنظم الرئيسي لها في الخفاء هو الحرس الجامعي ! . . ندواتهم تلك التي كانت تجبر الطلاب على عدم حضورها بموضوعاتها السخيفة أو بضيوفها المجهولين الذين ينجحون في نيل الموافقات الأمنية فيكون نتاج ذلك ألا يحضر تلك الندوات إلا عدد قليل من الطلاب تكفي أصابع اليد الواحدة لحصرهم، ليس على اتحاد الطلاب - مرغما حينها - إلا الكف عن الرغبة في تنظيم أي ندوة جادة في المستقبل.

لكم كانت معاناتهم قاسية مع سطوة المنظومة الأمنية التي كانت تحكم السيطرة على كل شئون الجامعة!

بعد انتهاء الندوة خرجت وسالي نتناقش في موضوع الندوة . . كانت الشمس تقوم بدورها في شواء مخي على نار هادئة ولكني فوجئت بأنها قد غربت فجأة! . . ولأن نشرة الأحوال الجوية قد أخبرتنا بأن الطقس سوف يكون صحوا كروح سالي والسماء صافية كوجهها، فقد استبعدت تماما – على الرغم من أكاذيب النشرة الجوية التي اعتدنا عليها - أن يكون ذلك نذيرا بتكاثف للسحب المنخفضة والمتوسطة وسقوط الأمطار على الجهات الشمالية والوجه البحري، ولأنه لم يعلن في نشرات الأخبار عن حدوث كسوف كلي للشمس أو جزئي فقد استبعدت هذا الاحتمال أيضا . . وهنا اتخذت قرارا بأن أرهق نفسي قليلا وارفع رأسي لأستوضح ما حدث وليتني ما رفعتها!

الرياح قررت أن تأت بما لا تشتهي السفن، حقا قد صدق المتنبي كعادته حين قال:

*"ما كل ما يتمناه المرء يدركه * * تجري الرياح بما لا تشتهي السفن"*

كان غير الخبير سيقول أنني رأيت جبل المقطم وقد انتقل داخل الجامعة ولكن الخبير مثلي يعرف بكل ثقة أن هذا ليس إلا تامر !

من تامر؟!

تامر اللعين – للقلة الذين لا يعرفونه – زميل قديم في حجم الثور، كنت من وجهة نظره نحيلا جدا في حجم لفائفي البرغوث إن كان للأخير لفائفي . . بينما هو في نظري ضخم جدا كقاولون الديناصورات المنقرضة، يمتليء مثلها بالفضلات المتعفنة في انتظار الوقت المناسب لإخراجها!

كان كتلة من العضلات التي تطفو فوق بركة من المياه أسفل جلده من أثر الكيماويات اللعينة التي تكتظ بها صالات اللياقة البدنية ورفع الأثقال . . من يراه يحسبه بطلا في كمال الأجسام ورفع الأثقال واسطوانات البوتاجاز وزن "الخرتيت"، ولكنه فوق كل ما سبق كان وغدا عن جدارة واستحقاق!

كان تامر لا يختلف كثيرا عن مروة – مع اختلاف الجنس – تعتبره أغلبية فتيات الجامعة فتى الأحلام الذي سيأتي راكبا البراكيوسورس - الذي أتعجب من كيفية تحمله لوزن تامر - ليخطفهن . . غير مدركات الحمقاوات من أنه سيكتفي باغتصابهن وإغراقهن أحياء في أقرب ترعة عرايا كيوم ولدتهن أمهاتهن لتكتشف أمرهن بعد أسبوع هذه السيدة التي تجلس مع أوانيها وطشتها يغتسلن في الترعة!

هو الزوج المثالي لمروة – فتاة الطب البيطري - إن تناسينا اختلاف الحجم لينتهي بها نفس المصير البائس ولكن في قتلة شرعية إن كان هناك ما يسمى كذلك!

الأوغاد للوغدات ويا بختك من وفق رأس ضبعين في الحلال!

كان تامر يجد تسليته الوحيدة معي في ممارسة (التلقيح) الممنهج كعادة أي بائعة في سوق الثلاثاء، مع الكثير من الغمز واللمز . .

الجحيم هو تامر . . !

وقف يومها خلفي وقد حاول أن يبدو مخيفا كجني مصباح علاء الدين عاقدا ساعديه أمام صدره قائلا في سخرية لزجة:

- هشام حبيبي . . العضم اللي نسيوا يلحوسوه حتى بشوية لحمة . . القملة بتاعة القرش صاحبتنا . .

- ما تتلم يا تامر . . أنت مالك بينا يا ابني . .

قالتها سالي في نفاذ صبر . .

- ما سمعتش صوتك يعني يا عرق الملوخية . .

استكمل سخريته المريرة . .

كنت أعلم بالطبع أن سالي مهما بلغت مهاراتها (الأميتاباتشانية) لن تستطيع أن تحدث فارقا في هذه المعمعة التي تهل بشائرها، حتى وإن أضفنا لها قوة مجموعة العظام تلك التي لم تكس لحما الممثلة في شخصي . .

حسنا، يا معشر الرجال على هذا الكوكب البغيض، هالك معذور خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من قدر، وإن الصبر من أسباب الظفر . . المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور . . يا معشر الرجال قاتلوا فما للمنايا من بد . . هكذا قال هانئ بن مسعود الشيباني في قتال جيش كسرى وأنا أقولها من بعده . .

- ما ترد ياله إيه اللي جايبك هنا . .

قالها صارخا هذه المرة . .

- هو حضرتك إن شاء الله شرطة عسكرية ولا أمن دولة . . أخرك كده ما تجبش غير شرطة مدرسية !

قلتها في ثقة وبرود مصطنع للغاية وأنا أحاول أن ابحث عن أي فرد من أفراد حرس الكلية . . لكن الوغد اللعين لم يعطني الفرصة وأمسك بتلابيبي وبساعده الأقرب لجزع شجرة تعدت الألف سنة عمرا طوّق عنقي . . أنشبت أنيابـ . . أسناني في ساعده في غل فصرخ في ألم قاذفا أياي دون أي مبالغة إلي الأرض لتبدأ القاذورات في الإندفاع من فمه في هيئة سباب فاحش يخدش حياء إنسان الكهف الأول . . قاولون

الديناصورات المنقرضة يخرج فضلاته المتعفنة على مرأى الجميع بلا حرج!

هالك معذور خير من ناج فرور . .

استجمع عقلي في ثوان كل ما رأيت من معارك لبروس-لي وجيت-لي وفريد شو-قي ولصبية الشارع وأنا أنطلق نحو منتصف بطنه برأسي كأي كبش جبلي يحترم نفسه مما جعله يترنح للخلف قليلا محاولا عبثا أن يحفظ توازنه . .

استقبال الموت خير من استدباره . .

قفزت نحوه محاولا توجيه بعد اللكمات مثلما تفعل سالي معي ولكنه أمسك بتلابيبي مرة ثانية بيسراه وانهالت يمناه اللعينة علي بلكمة قذفتني مرة ثانية بجسدي للوراء أمتارا . . رأيته يتجه نحو سالي التي تجمدت في موضعها وهي تكتفي بالصراخ بجملة واحدة تكررها "*بس يا قليل الأدب . . حرام عليك يا قليل الأدب*" . .

الطعن في ثغر النحور أكرم منه في الأعجاز والظهور . .

ألا لعنة الله على كل تلك الجماهير التي تقف تشاهد هذا الثور ينهش في لحمي بقرونه في حلبة المصارعة تلك . .

نهضت وكل عضلة بجسدي تئن وتشتكي إلي الله طالبة راحة أبدية . . قفزت فوقه من الخلف لأتعلق بعنقه الضخم وأنا أصرخ في سالي . .

- **اجري أنتِ يا سااااااالي . .**
- **أنت بتزعقلي كده ليه ؟!**
- **مش وقته خالص على فكرة . .**

استطاع جبل المقطم أن يلتقطني بسهولة كما يلتقط القمل الذي يحتل شعره . . أصاب وجهي البريء عدة لكمات إحداها أصابت عيني فشعرت بها تغادر محجرها هاربة من هذه الجحيم المستعر . . ثم داعبت قبضته صدغي الأيمن في عنف حديثي الزواج، وأخرى صافحت فكي في ود اللئيم لأشعر بإحدى الأسنان تقفز فارة إلي حلقي لتستقر في المعدة . .

ترى هل يستفيد جسدي بما بها من كالسيوم ؟!

توالت اللكمات في تناغم سوف يصبح رائعا وجميلا إن لم يكن موجها لوجهي وجسدي حتى شعرت بغيوم تتكاثف في ثقة أمام عيني فأفلتني من يده لأسقط أرضا . .

كنت حينها في مرحلة الوعي واللا-وعي وأنا أراه يتجه ثانية نحو سالي التي تتراجع في رعب . .

صحراء جرداء تلك لا زرع فيها ولا ماء يجتذب البشر أم جامعة حكومية !

وجدت حجرا ضخما إلى جواري حملته مترنحا والدماء تسيل من فمي كمصاصي الدماء أو كإبراهيم الأبيض في مشهده الأخير إن شئنا الدقة . . آخر ما شعرت به حينها هي تلك الصخرة وهي ترتطم برأسه في عنف، وأظلمت الدنيا من حولي . .

لم يكن هابيل المظلوم . . ولم أكن قابيل الظالم . .

* * *

* * *

إذا غامرت في شرف مروم * * فلا تقنع بما دون النجـــوم

فطعم الموت في أمر حقيـر * * كطعم الموت في أمر عظيم

* * *

كان لابد من واسطة محترمة في بلد إن زُرِعَت صحاريه بالكوسة لاحتجنا لاستيراد المزيد منها . . أنهت تلك الواسطة الأمنية هاتفيا المشكلة التي واجهتها مع سالي أمام حرس كليتها . . أما تامر فاعتبرت الكلية أن فصله لإسبوعين هو رادع له! . . لا يعلمون بأن ذيل الكلب لن يستقيم أبدا وإن علقوا به حجارة الهرم الأكبر جميعها !

كنت في فراشي والضمادات الكثيرة تغطي وجهي مع بقعة الدم الحمراء المميزة تلك التي تتوسط ضمادة الجبهة كما جرت العادة . . كان تفسير الأمر لأبي وأمي عسيرا حقا . . إنني مراهق يتشاجر من أجل جارته في كليتها . . مراهق رقيع مستهتر . . أما سالي فلم يعرف أحد من أهلها بالأمر . .

لم يكن أهلي يعنيهم الشجار من أجل سالي في شيء . . كل ما يعنيهم – وبخاصة أمي – كان تركي لمحاضراتي والتسكع مع سالي . . هكذا لم يصرّحوا بالأمر، ولكني أدركته . . أقسمت لأبي بأني لم ارتكب خطئا يذكر . . اقتنع هو وتشككت أمي . .

معهما كل الحق !

كانت سالي قد جاءت مع أهلها ليلتها لزيارتنا، جلست في المقعد المجاور لي وهمست في أذني في ود:

- ما كنتش اعرف إنك بتحبني قوي كده يا إتش . . مش عارفة أقولك إيه . .

تحسست الكدمة التي تزين فكي هامسا:

- عيب يا سالي . . بتشكريني على حمايتي لحبيبتي . . روحي وقلبي وفشتي كمان اللي بتنفس بيها . . بس إيه رأيك . . فرمته . .

- لا ما هو واضح . .

- آه والنعمة . .

- أنت هتصدق نفسك . .

ثم صمتت وكأنها قد تذكرت شيئا، ثم تابعت في حدة هامسة . .

- هو أنت أزاي تزعقلي كده قدام الناس . . هو أنا جارية عندك ؟!

حملقت في وجهها ببلاهة مندهشا مصدوما ولم أجبها بشيء !

* * *

* * *

وإذا لم يكن من الموت بد * * فمن العار أن تموت جبانا

* * *

(٩)

كانت رائحة رائعة تلك التي تنساب إلي أنفي . . !

عندي تفوق كثيرا أجود العطور الباريسية التي لم توجد بعد . . !

كنت أعبئ بها صدري في سعادة آكلي لحوم البشر وهم يعبئون جوفهم بأصناف محببة من اللحم البشري الطازج في حفلة شواء على ضوء القمر ليلة اكتماله بدرا !

إنها رائحة الفورمالين المميزة . . وماذا غيرها ؟!

كنت إلى جوار سالي في أحد دروس التشريح العملية في كليتي . .

ماذا أتى بسالي إلى هنا ؟!

عفوا، لقد نسيت أن أخبركم بما دار بيننا في اليوم السابق . . فخلال نقاش بيني وبين سالي عن أهمية تشريح ضفدعة في السنة الأولي لي في الكلية . . وبعدما خفت أن تفقد أعصابها فتفر قبضتها الرقيقة لتختبئ في معدتي، أخبرتها بأنها لن تعرف تلك الأهمية كمقدمة لعلم التشريح قبل أن تجرب أصلا عملية التشريح . .

ويا ليتني ما أخبرتها . .

لقد قررت سالي أنها ستحضر معي درس التشريح العملي القادم وهي متى قررت وجب علي شخصي المسكين التنفيذ . .

وقد كان يوم الثلاثاء الذي لن أنساه أبدا ما حييت حتى وإن نسيت تاريخ ميلاد سالي ذاتها . . بعد محاولات مضنية مني كي أثنيها عن الحضور انتهى الأمر كما ترون بسالي تقف إلى جواري ترتدي المعطف الأبيض الذي استعرته لها من إحدى الزميلات، جالسة تغالب شعورا ملحا بالغثيان محاولة أن تتماسك . . ليس رؤية فتاة رقيقة تتقيأ بمشهد محبب . . كانت تبدو رائعة الجمال في المعطف الأبيض وكأنها خلقت لتكون طبيبة لا أن تصبح مؤرخة ستصبح يوما مسنة مبعثرة الشعر شيباءه، ترخي عويناتها الطبية السميكة على أرنبة أنفها وتطل علينا في التليفزيون مع محمود سعد بوجه"يقطع الخميرة من البيض". . آه من هذه المعطف الأبيض الذي يجعلها فاتنة!

كانت سالي تستند بأطراف أصابعها في تقزز واضح إلى المنضدة عندما دخل الأستاذ الدكتور صابر عبد المعز الأستاذ المتفرغ بقسم التشريح الذي قرر في هذا اليوم بالذات أن يقوم هو بالشرح بدلا من أحد المعيدين.

الدكتور صابر قامة علمية مرموقة جاوز الستين ببضع سنوات، يعرفه كل من له علاقة بالطب البيطري أو سمع به على أقل تقدير . . ذو وجه سمح وابتسامة ساخرة ساحرة يحافظ عليها وسط التجاعيد التي تحيط فمه محافظته على حياته نفسها . . إذا تحدث أمكنك حينها دون إنصات أن تسمع دبيب النمل الذي يجري باحثا عن رزقه في الكليات المجاورة . . يجتمع بمحاضراته الطلاب المحبين والشغوفين بالعلم ويفر منها كل من يخاف على نفسه من لسانه اللاذع الذي يخرس الأفواه ويجرح المشاعر ويهبط بكرامة الشخص إلى سابع أرض من وقع الإهانة.

كان التشريح هو المادة الوحيدة التي تستهويني، ولذا كنت من دون بقية زملائي على علاقة ممتازة بدكتور صابر وكنت فخورا بهذه العلاقة معتزا بها اعتزازي بأول ابتسامة تصدقت بها علي سالي . .

كان الدكتور صابر قد بدأ الشرح . . أطلقت سالي سبابا أنثويا رقيقا همسا ثم اعتدلت فتنحنحت ثم قالت في ثبات وثقة مخاطبة الدكتور صابر:

- دكتور صبري . . من فضلك . .

التفت الدكتور صابر تجاهنا وقد ارتسمت على وجهه علامات الدهشة تمتزج بالغضب من مقاطعته . . لأن يخطأ أحدهم في اسمه هو شيء قد يغتفر، أما أن يقاطعه أثناء الشرح فهو شيء يستوجب لفاعله الإعدام شنقا في ميدان عام، ولكن سالي لم تعطه الفرصة ليكمل دهشته أو غضبه أو التفكير في الإجراءات والترتيبات التي سيتخذها لإعدامها حين تابعت . .

- دكتور صبري . . هو علم التشريح للحيوانات فعلا ليه أهمية ولا هو بصراحة تضييع وقت ؟!

يا لها من بداية رائعة لنهايتي . . !

- هو ده أول يوم تدرسي فيه التشريح ولا إيه يا دكتورة البهايم . .

كان هذا التوصيف الرقيق "دكاترة البهايم" هو الوصف المحبب للدكتور صابر لنا مؤكدا دائما أنه فخر لا شيء نتنكر له !

- أنا مش دكتورة بهايم حضرتك يا دكتور صبري . . وبعدين حضرتك كده غلطت فيا وشايفة إن إنسانيا أنت مدين ليا باعتذار . . !

لِمَ لـَم تطلـق سـالي برأسـي رصاصـة رحيمـة فـي المنـزل إن كانت تريد القضاء علي بدلا من هذه النهاية المأساوية !

لـم يكـن الـدكتور صـابر مـن نوعيـة أسـاتذة الجامعـة الـذين يطردون الطلاب من محاضراتهم لمجرد التمخط بصوت مرتفع أو لاستخدام نـوع مـن المناديـل الورقيـة لا يـروق لهـم . . تلـك النوعيــة منتشــرة بكثــرة – الأســاتذة ولــيس المناديــل – فــي الجامعات المصرية للأسف . . كـانوا يعتبـرون أنفسـهم الحـاكم الآمـر النـاهي الـذي لا سـبيل لأحـد لمراجعـة قراراتـه التـي قلمـا تقترب من الصواب أو من عين الحكمة . .

كان الدكتور صابر لا يؤمن بمبدأ طرد طالـب مـن محاضرة إلا إذا رغـب هـذا الطالـب فـي ذلـك فـي شـدة . . كـان يكتفـي بإغراقهم في محيط من السخرية اللاذعة التي يود الطالب معها لو أن الأرض انشقت وابتلعته بدلا من أن يواجه هذا التقريع . . لذا فقد أجاب سالي في هدوء ساخرا:

- أولا أنا اسمي يا (كتكوتـة) دكتـور صـابر عبـد المعز . . أيـام مـا كنتـوا بتسـتخدموا الكافولـة قبـل البـامبرز كـان أتخن تخين في مجالنـا ده عـارفني . . أمـا التشـريح يـا قطقوطة فمهم جدا أكتر من اللـبن اللـي الأطفـال الرضـع اللي زيك بياخدوه . . أبقى تعاليلي المكتب وأنـا أقولـك أهميته . .

أنـهى جملتـه الأخيـرة بغمـزة مـن عينيـه فـي دلالـة جنسـية واضحة!

كم كنت أعشق طريقة دكتور صابر في سخريته من الطلاب وخاصـة الفتيـات والتـي غالبـا مـا تحفـل بالإيحـاءات الخادشـة للحياء باعتبارنـا شـعب يحـب أغلبـه هـذه الأشـياء . . إذ يـدفعهن ذلك إلى المرحلة التاليـة الطبيعيـة وهـي البكـاء الهسـتيري الـذي

يظهر فيه ضعف الأنثى الذي تحاول هي منذ قديم الأزل إخفاءه، وتبذل في سبيل ذلك الغالي والنفيس . . وكم من سد من المناديل الورقية قد انهار أمام قوة سيول دموعهن!

لست مليئا بالعقد النفسية كما يبدو من صراحتي في هذا الموضوع تحديدا . . أقسم لكم بالله عز وجل على ذلك بل وأغلظ القسم وأنا مستريح الضمير . . كنت فقط أحب أن أراهن في تلك الحالة ضعيفات كما خلقن . . بعيدات كل البعد عن الشعور الزائف بالقوة والجبروت الذي يلوث فطرتهن . . نعم كنت أحب أن أراهن في تلك الحالة، ولكن بالطبع لن أحب أن أرى سالي تنضم إليهن وبخاصة في وجودي . . وقد راعت هي ذلك الأمر حين ردت في سخرية:

- أنت عارف يا دكتور تمثال رودس ؟! . . *تابعت دون انتظار لرد* . . أقولك أنا . . ده تمثال موجود في جزيرة رودس في اليونان . . صنعوه علشان إله الشمس هيليوس من البرونز في نهاية القرن الـ ١٤ على أيد نحات اسمه كارس . . ارتفاعه أكتر من خمسين متر . .
- معلوماتك التاريخية مذهلة يا سالي . .

قلتها هامسا.

- شكرا يا هشام . . *قالتها بصوت مرتفع وتابعت* . . أنا بقى مش شايفة أي لازمة إن يقف دكتور في حجم تمثال رودس ده قدام ضفدعة مسكينة بيستعرض قوته ويشرّحها على الرغم من إن طلابه بيدرسوا في كلية الطب البيطري يعني مفيش واحد هيجيله العيادة في يوم بضفدعة عندها إمساك أكيد !

كان الجميع - وبخاصة الفتيات - ينظرون إلى سالي في إعجاب استثار الدكتور صابر لكونها الوحيدة التي وقفت بشجاعة تضاهي شجاعة هرقل حين صارع الهيدرا أمام الدكتور صابر دون حتى أن يرمش لها جفن !

كان الدكتور صابر يستمع لها دون مقاطعة يفكر في كلماته القادمة والتي يجب أن ينتقيها بعناية، لقد أصبح في تلك اللحظة في حالة تقطع نياط القلب في مشهد يرق له قلب الكلب . . هي الثائرة التي ستفتح الباب من بعهدها على مصراعيه لكل من هب ودب ليتجرأ بالرد على الدكتور صابر . . وما لبث أن احتقن وجهه بالدماء وكشر عن أنيابه وبانفجار شبهه المؤرخون بانفجار القنبلة الذرية في هيروشيما اليابانية تعيسة الحظ . . انفجر الدكتور صابر بصوت ارتعدت له فرائصي . .

- بقى أنت يا فار التجارب توصل بيكي الوقاحة تتعدي على دكتور بيدرس التشريح من قبل ابن النفيس نفسه ما يتولد . . ومين الحمار اللي نصحك تدخلي الكلية دي لما أنتِ مش طايقاها . .

ابتسمت سالي في هدوء مستفز واضعة يدها على كتفي قائلة في هدوء:

- أنا بدرس في كلية التربية . . و اللي نصحني آجي أحضر السكشن ده هو هشام . . أكيد حضرتك أهو مش شايف أنه حمار !

لو أن سالي سكبت دلوا من البنزين على جسدي وأضرمت فيه النيران ووقفت ضاحكة لتشاهدني اشتعل وأتفحم لكانت أكثر عطفا وحنانا ورحمة من أن تضع لي هذه النهاية المأساوية التي لم ترد في أكثر كوابيسي بشاعة !

هي فرصتك يا دكتور صابر لكي تطبق عمليا المثل الشعبي القائل " *مقدرش ع الحمار فبيتشطر ع البردعة* " . . أنا (بردعة) واتقبل بطيب خاطر العقاب على تصرفاتي الخاطئة، هي فرصتك كاملة قد جاءتك على طبق من ذهب فلا تكن أحمقا واغتنمها . . وبالطبع لم يكن الدكتور صابر أحمقا يوما ما، وقد اغتنم الفرصة كاملة بالفعل وأنفجر في وجهي بكل ما يثقل رأسه من غضب . .

- بقى أنت يا أغبي م الحمار بعتبرك تلميذي وابني، وجاي تتسرمحلي في السكشن وعاملي فيها هارون الرشيد . . ده . .
- يا دكتور . . .
- اخرس يا جحش البرك . . بلا دكتور بلا زفت . . أنت اللي دكتور يا خويا . . بدل مش قادر تستغنى عن شهرزاد يا شهريار الزفت حتى وقت سكاشنك فخليك جنبها تفليلك راسك م القمل اللي بيسرح فيها . .
- دكتـ . .
- بلا دكتور بلا زفت . . أياك اشوفك في محاضرة ولا سكشن تشريح . . وأبقى تعالي اضربني على قفايا لو نجحت السنادي . . وأبقى أقف (كلمة عامية دارجة تزدحم بحرفي الطاء والراء وتعني التبول) على تربتي لو أتخرجت م الكلية دي . . امشي اتجروا برة جاتكوا القرف . .

* * *

بالطبع تتوقعون دون جهد ماذا قد حدث . .

كليتي كبقية الكليات المصرية لا يُنصَر فيها طالب على عضو هيئة تدريس . . رسبت في الامتحان التحريري والعملي والشفوي رغم استحقاقي لتقدير امتياز في هذه المادة دون غيرها . .

عام آخر مر وأنا أرسب في التشريح، وكان الفرج من الله سبحانه وتعالى بأن يقبض روح الدكتور صابر رحمه الله كي يكتب لي التخرج من هذه الكلية بعد مرور خمس سنوات فقط . . فآفة وطننا النسيان . . وما أن توفاه الله حتى نسي أساتذة القسم لم كانوا يجاملونه وماذا فعلت معه، ترأفوا بي وسمحوا لي بأن أحصل على ما استحق من الدرجات في امتحانات التشريح التالية . . وحدث أن تخرجت . . لم أذهب لقبر الدكتور صابر لأقف عليه وأفعل ما أمرني به إن تخرجت، فللموت حرمة . .

ماذا بإمكاني تفسير ما فعلت سالي معي ؟! . . كيف بإمكاني أن أسامحها بعد هذا الموقف غير المبرر منها . . هل هناك إثبات آخر على أحبها حب من الذي يشعل النيران في حقول الذرة !؟

* * *

(١٠)

كنت مع هيثم صديقي العزيز في هذا اليوم . .

من هيثم ؟!

حسبتكم تتذكرونه . . إنه سقراط . . هكذا أنتم تعرفونه . .

كنا على ذلك المقهى الذي يبعد عن منزله بعدة شوارع . . أمسك هيثم اللّي الخاص بـ(الجوزة) وقد أدمن مؤخرا تدخين المعسّل وقال نافثا سحب الدخان في وجهي:

- بص يا هشام . . أنا شايف علاقتك أنت وسالي . .

- الأول أنفخ بعيد بدل ما أنفخك أنا . . ثانيا دي مش علاقة . . ده حب عذري . . حب صادق . . حب نقي طاهر بريء . .

امتلكت حقوق الملكية الفكرية لهذا التوصيف قبل الدكتور عبد المنعم أبو الفتوح بسنين . .

- طيب يا عم المتطاهر . . أنا شايف علاقـ . . عاطفة الحب اللي بينكم دي مودياكم انتوا الاتنين في داهية، وهتلاقي مستنيكم خزنة جهنم لو استمرت . . أنت بتحبها أنا متأكد أكتر ما أنا متأكد أن أمي تبقى أمي . . بس يا ترى هي بتحبك بجد ؟!

- أكيد طبعا !

- ليه يعني أكيد وطبعا ! . . انتوا سجلتوا حبكم خلاص في الشهر العقاري !

قلت في نفاذ صبر محاولا إسكات هذا السقراط . .

- بص يا سقراط . . لو فيه حقيقة مؤكدة في العالم ده اللي أنت مش متابعة إطلاقا على فكرة، فهي أن حبي لسالي وحبها ليا متساويين قوي . . لحد ما يتثبت العكس يا أخي . . اتبطيت كده ؟!

اتجه سقراط بيده الحرة نحو رأسه ينقب في غابات شعره الأشعث باحثا عن بداية مناسبة للكلمات التالية، ثم سحب نفثا من الشيشة غير مدرك أنني قد نزعت الخرطوم منها ثم قال:

- بص يا هشام . . أنا مش عايز أشتتك . . بس الستات دول فشل كل المحللين النفسيين أنهم يفسّروا تصرفاتهم أو يتوقعوها حتى . . عقلهم غريب ومعقد يا جدع . . ناس شايفينهم وحش م الأساطير لكنه وحش ضعيف فبيحاول يفرض قوته النسبية بكسر شوكة الراجل اللي هو المنافس ليه في الكوكب ده . .

هل يدخن سقراط الحشيش دون علمي ؟!

سالي وحش أسطوري !

سالي الرقيقة التي لم أرها يوما تبرز أنيابها وتلتهم الأطفال الرضع كفاتح للشهية قبل وجبة العشاء !

سالي الرقيقة وحش أسطوري ؟!

يا للعجب ! . . عندما كانت تهوى بقبضتها على مكتبي احتجاجا واعتراضا على شيء ما، لم يكن المكتب يتحطم . . أنا فقط كنت أرتعد . . !

سالي وحش أسطوري ؟!

لقد جُنّ هذا الهيثم !

- هشام أنت رحت فين . . بقولك . . أحكيلك حدوتة ؟!

- أهري . .

- عارف سقراط الحقيقي العظيم ؟!

- آه اللي مشي عريان في الشارع وبيقول وجدتها وجدتها . .

- على فكرة ده أرشميدس . . سقراط ده بقى كان بيهرب من مراته كل يوم من الفجر لحد المغرب . . بيطفش منها . . كان شايف الحكمة أنه يخرس قدامها . . وكانت أسعد أوقات حياته لما بيبقى نايم بعيد عن وشها . . فيه واحد راح سأله . . أتجوز ولا أفضل كده مقضيها في الحمام . . قاله والله أنا شايف إنك تتجوز . . لو مراتك هتسعدك وتبسطك أديك كسبت . .

- قاله أديك ؟!

لم يعر تعليقي أي انتباه ونظر لي شذرا متابعا:

- أما مراتك لو قرفتك فببشرك هتبقى فيلسوف زيي . .

- زيك أنت ! . . أعوذ بالله . .

- المهم أنه كان شايف الرجالة مساكين . . محتارين يتجوزوا ولا يفضلوا مقضينها . . في الحالتين كده كده هيندموا . .

- عايز تقول إيه يعني ؟! . . لخّص ؟!

- من الآخر أنا شايف أنك تفكر تاني وأنت لسه ع البر . . لا فيه شبكة ولا مؤخر ولا نفقة ولا لسه كعيت مواسم يا ابن الحلال . . إن كان على شوية دباديب ولا هدايا جبتها مقدور عليها ممكن نرجعهالك لو عايز . . ولو هي طمعانة فيهم يا سيدي في ستين داهية . . اللي أحيانا بتحكيهولي بيقلقني عليك . . أنت شكلك واقع وسالي – اسمحلي يعني – فاهمة ده ومتأكدة منه تماما . . بس الله اعلم هي في الآخر بتحبك ولا لأ بقى . .

يا إلهي الرحيم . . إن كانت لي دعوة مستجابة . . فأجب دعائي وأنزل صاعقة من السماء تضرب هذا السقراط . . هل أنا في حاجة لمزيد من الحيرة !

* * *

الأمور لا تسير على ما يرام . . هذه حقيقة . . !

لم أكن في حاجة على الإطلاق لمزيد من الحيرة يبثها سقراط في عقلي لتزكي صراع الأفكار المضطربة الثائرة في رأسي . .

هل سالي حقا وحش أسطوري كبقية النساء ؟!

هل هي تحبني حقا كما أظن ؟!

سالي دون شك رقيقة بريئة المشاعر تسير على الوحل دون أن تنغمس قدماها فيه . . تسير على قشر البيض فلا يتهشم . . تمشي الهوين كما يمشي الوجى الوحل . . كأن مشيتها من بيت جارتها مر السحابة لا ريث ولا عجل مثلما يقول الأعشى . . لا يتمكن عقلي كثيرا من فهم ما وراء تصرفاتها أو تفسير الكثير من أفعالها . . ولكن حسن الظن كان دائما الذي يقودني . . لكن ما حدث قبل لقائي بهيثم بأسبوعين بشأن شعر رأسي قال عنه سقراط أنه لدليل بيّن على قسوة سالي ووحشيتها ورغبتها في إذلالي . . !

ماذا حدث ؟!

لقد فاتني أن أحكي لكم . . بل لقد خفت أن أحكي لكم كي لا ينتزع أحدكم حنجرتي . .

كل ما في الأمر أنني لم أحلق شعري منذ فترة طويلة وصلت لثلاثة أشهر إن لم تخني الذاكرة . . ليس للأمر علاقة بشجار مع الحلاق ولا بفقر وضيق ذات اليد يمنعني من تدبر أجر الحلاقة وبالطبع ليس هذا رغبة مني في أن أبدو قذرا مبعثر الشعر أشعثه كالمجذوبين !

كانت سالي في تلك الفترة ترى أنني أكثر وسامة من أنور وجدي حتى دون الحاجة لدلو من الفازلين المخلوط بالسمن البلدي لتهذيب شعرى . . ولكن، وآه وألف آه من (لكن) تلك التي تقلب الأمور رأسا على عقب . .

جاءت سالي في أحد الأيام وقالت أنني قد أصبحت دميما وقبيح الخلقة ككازيمودو بطل أحدب نوتردام بشعري هذا الأكثر طولا من شعر الفتيات وإنه يشبه قبعة لفرنسية اسمها إليزابيث ولدت في مارسيليا !

أخبرتها – كذبا – بأنني كنت انتوي في الصباح من تلقاء نفسي أن أذهب في زيارة للحلاق ليلا حتى نهذب هذه الأشجار التي قد نبتت في رأسي . . تذمرت واعترضت ثم قالت في دلال:

- عارف يا إتشي كهنة آمون اللي كانوا قرع دول وراسهم ولا المراية . . تحس أنهم جد كده مش رجالة سيكي ميكي . . . نفسي أشوفك يا حبيبي زيهم بدل ما فكرة أنك سيكي ميكي دي تثبت في دماغي . .

اعترضت وناقشت وجادلت وهاجمت ودافعت، فانفجرت في وجهي صارخة:

- جرى إيه يا هشام . . الراجل يا أخي ما يتكسفش من قرعته . . تفتكر يعني إن الموضوع ده بيفرق مع حد غيري . . لو بقيت اقرع يعني هبطل أحبك ؟! . . وبعدين كنت هتعمل ايه يعني لو دخلت جيش ؟! . . آآه قولي كده . . تكونش واحدة تانية قالتلك إن فروة الخروف دي عاجباها ولا حاجة !؟ . . لو الموضوع كده، ماشي ومالة بدل أنت عاجبها، ومش مشكلة أتفلق أنا . .

بالطبع تعلمون كيف انتهى النقاش أحادي الجانب كالعادة، ذهبت للحلاق ليلتها . . جلست تحت يديه أنظر للشعر الذي يتساقط خضوعا لماكينة الحلاقة بأزيزها الذي لا يختلف عن آلة جزّ الحشائش وهي تصول وتجول في رأسي . . ما أسهل الهدم وما أصعب البناء . . !

عدت للبيت برأس أكثر لمعانا من مرآة صقلت على أحسن وجه في وادي المرايا المقدس !

- إيه اللي أنت عملته في نفسك ده يا هشام . . ما تحاول تختفي على ما يطلع شعرك شوية ! . .

قالتها سالي في دهشة حين رأتني يومها !

- مش أنتِ اللي قولتيلي اعمل كده يا بنتي . . ؟!

معلومة مجربة بالفعل: قد تتهشم الضروس من شدة الجزّ على الأسنان !

- أنا الصراحة يعني كنت عايزة أعرف أنت بتحبني أنا أكتر ولا شعرك مش أكتر!

قالتها في بساطة قاتلة وابتسامة ظفر تزين وجهها الصافي!

أحمق هذا الشمشون بن منوح الدني الجبار لا شك . . لم يلتفت لكل ما كانت تفعله معه دليلة محاولة سلبه قوته . . لم يفهم أنها كل مرة كانت تحاول أن تضعفه وتسلمه أسيرا ذليلا للفلستيُّون . . كان يرى مكيدتها في صباح كل يوم ولا يدرك الأمر . . هو أحمق لا شك . . سلمها سره . . كلفت الخادم فحلق شعره فقد قوته . . فوقع أسيرا بسبب دليلة اللعينة زوجته وبسبب حماقته !

متـى ينمـو شـعرك يـا شمشـون ثانيـة لتهـدم المعبـد فـوق رؤوسهم !

يا للحيرة التي تعذبني . .!

هل أنا شمشون الأحمق الذي لا يفهم حقيقة دليلته؟!

هل سالي هي دليلة القرن الواحد والعشرين ؟!

هل هيثم هو سقراط اليوناني وقد بعث من جديد ؟!

من أنتم ؟!

* * *

* * *

أغرك مني أن حبك قاتلي * * وأنك مهما تأمري القلب يفعل

* * *

رحلة عبر التاريخ . . المحطة الثالثة:

ركع هذا الرجل الأسود البشرة أمام قدمي هذه المرأة بارعة الجمال ذليلا في انتظار أوامرها . .

- لتأمرينني يا سيدتي يا ابنة حالك.

قالها في خضوع تام !

- فلتلبسني حذائي هذا يا ابن حداد.

خرجت العبارة في استهتار من بين شفتي عدلة بنت حالك المكتنزتين مصحوبة بصفعة مدوية على قفاه الأسود سمعها أجداده في الحبشة، فما كان من عُصفرة بن حداد إلا أن ابتسم قائلا:

- اضربيني يا سيدتي فهذا يريح روحي ويثلج فؤادي المتقد . . اضربيني كما تريدين وزيدي فحبك دواء للألم . . هلا سألتي قفاي يا ابنة حالك . . إن كنت جاهلة بما لا تعلمي . . يخبـ . .

- رويدك أيها العبد الأسود . . أتتجرأ وتحبني . .؟! . . أجننت لتعلنه صراحة لي هكذا بكل بساطة ؟!

- نعم أحبك يا عدلة وإن عشت طوال عمري خادما أمينا للثري الذي تتهادين عليه . . هل غادر الشعراء من متردم . . أم هل . .

- كفاااااااااك أيها العبد الأسود . . هل أصاب فمك إسهال الشعر ! . . هيا أركع لي لتأخذني في نزهة، فجوادي اليوم في عطلة . .

ولم يكذب عُصفرة المسكين خبرا، وجعل عدلة ابنة حالك تمطتي ظهره كالبعير راكعا على أطرافه الأربعة . . ومن حين لآخر تلهب مؤخرته بالسوط كي يسرع فيزداد لهيب الحب في قلبه اشتعالا . . يبدو أنها حقا تحبه!

* * *

مخطوطة الجاهلية توداي :

اختفاء عُصفرة بن حداد، وتخلفه عن القتال ذودا عن القبيلة بدون أسباب، وقد صرح . . .

المرأة في العصر الجاهلي

* * *

(١١)

مضت سنوات الجامعة سريعا كلمح البصر لأبدأ رحلة البحث عن عمل كأي رجل يحترم رجولته . . كنت قد اتخذت قرارا بأن أعمل مثل الكثير من زملائي كمندوب دعاية طبية في إحدى شركات الأدوية . . تلك المهنة التي سيدوم عنها الجدال حتى قيام الساعة . . هل هي حلال أم حرام ؟! . . حسنا، ما دمت قد اخترت العمل بها فقد استقر قلبي على أنها حلال لا شبهة فيها ولنترك الجدال يستمر ويشترك به علماء الدين حتى تقوم الساعة . . عام مضى في تلك المهنة حتى اتخذت القرار بأن أتقدم رسميا لخطبة سالي حبيبتي الوحيدة.

كانت سالي قد عملت بالتدريس بإحدى المدارس الخاصة كمدرسة للتاريخ بعد تخرجها مباشرة إلي جانب استعدادها للحصول على درجة الماجستير . . عامان قد مرا على تخرجها تراكم خلالها أكوام وتلال من الشباب أمام عتبة بيتها يطلبونها للزواج . . هي ترفض وعمي سالم يوافقها أما أمها فكانت تنظر لسالي على أنها قد أصبحت على أعتاب العنوسة!

يعلمون جميعا بالحب الذي هو قائم راسخ بيننا، ولكن حتى الآن ليس هناك أي ارتباط رسمي . . لا مانع لدى أمها أن تتم الخطبة وتدوم لأربعين عاما أو يزيد . . ولكن يجب أن تتم رسميا وحسب!

أحمد الله صباح مساء أن سالي لم يكن لها ابن عم قادما من السعودية أو ابن خالة عائدا من الإمارات محملا ببراميل النفط يسعى لخطبتها.

في صباح ذلك اليوم الموعود ووفقا للاتفاق المبرم بيني وسالي سوف أطلب من أبي أن يطلب من أبيها أن يطلب من زوجته أن توافق على زواجنا . . وأن يتقدم معي وأمي لخطبة أرق فتاة عرفتها الكرة الأرضية والسماوات السبع منذ انقضاء العصر الطبشوري.

ظللت على مائدة الإفطار لدقائق بدت كالدهر أتنحنح مصدرا سيمفونية من "الإحم . . إحم . . إحم . . إحاااام " حتى نجحت أن أحول انتباه أبي قليلا عن طبق الفول . .

- أنت زوران ولا إيه يا هشام ؟
- إحم . . لا يا بابا يا حبيبي . . يا أحن أب في الدنيا دي كلها . .
- اتمسمرت أنا كده . . عايز إيه إنجز . . ؟
- فيه أب يقول لابنه الوحيد إنجز ؟! . . أنت عارف يا بابا يا حبيبي إني خلصت الحمد لله ابتدائي . . قصدي الجامعة . . والحمد لله شغال دلوقتي والفلوس معايا مرطرطة مش عارف أوديها فين . .
- أديها لأمك تعملك بيهم جمعية . .

كانت هذه بالطبع أمي . .

- ربنا يخليكي يا ماما يا حبيبتي . . منين ما أنتِ عارفة البير وغطاه، والأيد قصيرة والعين بصيرة . .

- وهنيالك يا فاعل الخير والصواب . . ما قولتش برضوا عايز إيه . . قولتلك إنجز . .

كان هذا أبي وعينه معلقة بطبق الفول محذرا أياي من المزيد من الاستدراك . . تابعت قبل أن يعود إلي فوله:

- كنت عايز . . يعني يا حاج الحجاج . . ما أنت عارف . . عايز ورق الشجر يبطل يقع في الخريف . . والعصافير تلاقي حاجة تضلل عليها علشان تزقزق براحتها وتبهدلنا العربية . . و . .

- وتتجوز سالي.

كانت هذه اللكمة الخطافية من أمي، نظر لها أبي مبتسما واكتفيت بهز رأسي لا إراديا كالمعتوه أن نعم وكل جوارحي تنتظر الكلمات التي سينطق بها أبي . . فخرجت كلماته بطيئة . .

- هي سالي بنت طيبة ومحترمة وأنا بعتبرها بنتي . . الكل عارف أنكوا بتحبوا بعض من ساعة ما حضرتك كنا بنحطلك الكافولة في اللاموخذة، ونفرشلك المشمع اللي شاط من عمايلك كل ليلة عليه في السرير . . وعارف أن جوازكم معناه إنك مش هتعيش معانا في الشقة تاني . .

- إلا لما تتخانق معاك وتطردك . . مالكش غير بيت أبوك هو اللي أولى بيك.

كانت هذه الجملة الاعتراضية بالطبع من أمي والتي خرجت منها بنفس أسلوب ماري منيب الدرامي والذي تجيده باحترافية كل الحموات . . فابتسم أبي وتابع:

- ده معناه إنك مش هتعيش معانا تاني باستثناء كلام مامتك اللي قاطعني . . ولكن . .

واطرق أبي دقيقة بدت عمرا مفكرا بعمق، سارحا بعينيه في طبق الفول . . ثم رفع رأسه في بطء . .

- ولكني موافق . . واعتقد ده رأي مامتك.

* * *

عندما يأتي المساء تشعر أن الكون كله قد تغير . . هدوء محبب . . سماء سوداء تزينها لآلئ كونية في غير أيام السحابة السوداء المصاحبة لحرق قش الأرز . . جو عام يساعد على التفكير في الذكريات السعيدة والتألم من الذكريات الحزينة . . مملكة أخرى تجعلك تكره حلول الصباح . . كم من عاشق تتأجج مشاعره ليلا . . لا شمس حارقة . . لا رطوبة خانقة . . لا ضوضاء مزعجة . . لا شيء يعلو فوق صوت العاشقين . .

بعد صلاة العشاء مباشرة مثلما اتفق أبي مع عمي سالم، ترونني خلف أبي وأمي بعدما تأكدت أن الأخيرة لا تخفي ثمرة بندق بقشرتها لتختبر أسنان سالي . . ولا أعلم لم تفضل الأمهات أن تكون زوجات أبنائهن ذوات أسنان صلبة تؤذي الأزواج بالعض في أي شجار محتمل!

أقف مرتديا البذلة الرمادية اللون التي تحبها سالي والتي أرى أنها تجعلني أقرب للفئران . . كنت قد اشتريتها خصيصا لهذا الحدث التاريخي الهام في مسار حياتي ولم أفكر كثيرا في المبلغ المدفوع فيها من عند . . لا داعي لذلك.

كان هناك استقبال عائلي حميم من عائلة سالي ينم غالبا عن النتائج المترتبة على الزيارة، جلست خجلا وقد استقرت عيناي على السجادة أحصي عدد خيوطها وقد بذلت قصارى جهدي كي أنجح فيما يفشل فيه أغلب الرجال بأن أبدو مهذبا قدر الإمكان وقد اكتسى وجهي بحمرة الخجل . .

فعلت كل ما بوسعي ونفذت الخطوات بحذافيرها المكتوبة في كتاب "*دليل المحتاج في أصول التقدم للزواج*" لابن لبيبة الخاطبة . . أشعر بثقل شعري وقد أجبرته أن يستقر وينساب من اليسار إلي اليمين بواسطة مثبت الشعر (الجل) الشبيه بمخاط الغيلان حتى ظهر مفرق شعري وكأنه قد شُق بعصا موسى فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم . .

حلقت شاربي ولحيتي تماما ثلاث مرات للتأكيد حتى كادت ماكينة الحلاقة أن تنتزع الجلد ذاته انتزاعا لأذهب بغير جلد للوجه وقد بانت لهم اللثة والضروس وعظام الجمجمة في مشهد سيزيد كوابيسهم إثارة لأعوام قادمة. . طوال الوقت أحاول أن أجبر شفتي على أن يكونا أصغر مما هما عليه . . حاولت أن أجرى جراحة تجميلية لإزالة أنفي ولم يسعفني الوقت . . ماذا بشأن أذناي؟! . . ماذا بيدي أن أفعل بهما !. . ليس الذهاب بـ(الآيس-كاب) أو (الزعبوط) الكلاسيكي بفكرة صائبة عند التقدم لخطبة فتاة على قدر اعتقادي!

كنت في هذه الحالة أقرب شبها بآلهة الأدب والاحترام عند المصريين القدماء ودون بحث أو تدقيق تاريخي بالطبع كان لديهم هذه الإلهة . . كنت أخشى أن يصدر مني أي فعل بسيط يجعل حماي المستقبلي العزيز يمسك بعلبة الشيكولاتة - التي أذبت لها دهن قلبي وبعته صباحا كي اشتريها - قاذفا بها في وجهي صائحا في غضب والزبد يتطاير من شدقيه . . أقصد من فمه:

"اخرج بره بيتي يا كلب . . معندناش بنات للجواز . ."

لم أكن أتحمل أن أرى علبة الشيوكلاتة الفاخرة الثمينة على الأرض وأنا أخرج مطرودا دونها !

يا حسرتاه إذا على دهن قلبي !

لسوف تأكل سالي وأمها العلبة بالكامل دون كلمة شكر أو دعاء لي بصبر وسلوان!

عندما طلبت سعاد حسني من حبيبها أن يحضر لها شيكولاتة وأن يعيد البطاطا عالمة بأن البضاعة المباعة لا ترد ولا تستبدل كانت تقصد من هذا القضاء على ميزانية حبيبها الشهرية!

لم يكن الأمر يحتاج لخلاف وجدال حول الشبكة والشقة والجهاز . . الثلاثية التي غالبا ما يحتدم الخلاف حولها في أي زيجة وتقضي عليها قبل أن تبدأ أو على أقل ضرر تصبح نقطة سوداء في قلب الزوج أو الزوجة لا تختفي مع الزمن!

كان عمي سالم يرى أن الشبكة هدية غير قابلة للتفاوض بشأنها . . وقد كان.

أما الشقة والجهاز فالأمر فيهما كما جرت عليه العادة . . واختيارهما شأن خاص بالعروسين فقط.

كان والد سالي حالة قلما تتكرر في تاريخ الزيجات!

كان أعلم مني بشخصي وأهلي وحالتي المادية . . ما دمت قد تقدمت للزواج من ابنته فأنا قادر على إعالتها . . من عريس غيري يعلم هو بأخلاقه وأدبه أو كما يقول لا يلف ولا يدور ولا يجعل من المقاهي بيته الثاني ولا يعاقر الخمر ويقضي لياليه في أحضان النساء ولا يدخن و . . ألخ.

أنهى عمي سالم حديثه مؤكدا أنه من الضروري – أولا! – أن نسأل العروس . . وغابت الأم عشرة دقائق حتى حسبت أن هذا التأخير لمحاولاتها إقناع سالي بي!

لن أتفاجأ كثيرا إن فعلتها سالي يومها ورفضتني !

وجاءت سالي تتخفي في خجل خلف أمها حاملة صينية عليها العصير الذي توقعت أن ينسكب علي ملابسي أو السيناريو الكارثي الأسوأ، أن ينسكب على أمي . . فتفشل الزيجة قبل أن تبدأ!

جاءت سالي وليس على وجهها كما عهدتها أيا من مساحيق التزوير والتي يصطلح كذبا على تسميتها بمساحيق التجميل! . . فبدت سالي لذلك كالعادة أكثر جمالا من فينوس ذاتها . . جميلة كأول زهرة في بستان كامل تتفتح أوراقها في مطلع الربيع . . جلست جوار أبيها في أدب تام وخجل جم خضّب وجنتيها بلون أشد حمرة من لون الفراولة! . . سألها أبوها عن رأيها . . صمتت . . صمتنا . . صرصور الحقل في المحافظة المجاورة يمكننا سماعه . .

- واضح كده أن عروستنا موافقة يا جماعة . .

نطقها أبوها . .

- نقرأ الفاتحة على بركة الله . .

قالها أبي . .

من يستطيع مهما أوتي من بلاغة البيان وفصاحة اللسان أن يصف شعوري في تلك اللحظات . . إنها بداية الحياة الحقيقية . . إنها البعث الثاني لروحي . . إنها السعادة كما ينبغي لها أن تكون . .

* * *

(١٢)

فترة الخطوبة الجميلة التي جُعِلَت كي يعيش أصحابها أسعد لحظات حياتهم . . وتكفلت أعباء هذا العصر الذي نعيشه بتحويلها لجحيم مستعر . . بحر لجي يصارعان فيه أمواجا تتقاذفهم من الخلاف فالجدال فالشجار وينجو فقط في أيامنا تلك من يتشبث بطوق الحكمة والصبر لينجو من ظلمات هذا البحر الذي قد يوصلهم لشاطئ الزواج السعيد بجناته ونعيمه أو يقذف بهم لشاطئ الانفصال المؤلم بجحيم ذكرياته وآلامه.

كنت زاهدا بشدة في إبداء الرأي فيما يتعلق بالشقة وتجهيزاتها وبالأثاث بأشكاله . . كل ما كان يعنيني في الشقة - كمعظم الرجال - ببساطة هو وجود فراش مريح يحتويني بين أحضانه بعد عناء العمل المرهق، وأريكة مريحة أجلس عليها لمشاهدة التليفزيون في أيام العطلات، ومكتبة تتسع لكتبي التي تتكاثر لا جنسيا باستمرار . . هذا كل ما كان يعنيني وأرغب به في شقتي . . أعطني خيمة بها ما سبق فقط ولسوف تجدني راضيا قانعا سعيدا مسرورا . . أما ما خلا ذلك فليس لي رأي به ولا يعنيني في شيء . . طلاء الشقة . . شكل غرفة السفرة . . شكل أكباس الكهرباء . . ألخ.

كانت سالي تصر على أن تأخذ رأيي في كل تلك الأشياء الثانوية التي لا تعنيني في شيء . . وكانت المشكلة تكمن في أنها تختار دائما النقيض تماما من رأيي!

امتنعت عن إبداء رأيي . . فغضبت!

بدأت أبدي عكس رأيي . . فكانت تفطن لذلك وحينها تأخذ به !

حسنا، سالي إذا كبقية الفتيات من نفس جنسها في تلك الأمور . . هكذا اقتنعت وتأقلمت مع هذه المستجدات . . لن تنجح تلك الخلافات اللعينة رغم صغرها في إحداث شقاق في جدار عشقي الراسخ لها كجبل طارق . . أنا في نعيم على الأقل من عدم تدخل أهلي وأهلها في تلك الأمور وهذه نعمة أحمد الله عليها آناء الليل وأطراف النهار.

كانت سالي في تلك الفترة يسيطر عليها التوتر وينتابها الشكوك وتعصف بها الظنون من كل فعل يصدر أو لا يصدر مني . . كنت ألتمس لها سبعين عذرا لذلك وإن استنفذت الأعذار كنت لا ألومن إلا نفسي، فنحن الآن مرتبطان رسميا أمام المجتمع والأهل والعشيرة . . قبل الخطوبة كان الأمر بيننا ويشعر به أهلنا فقط، فأي خلاف ينتهي بانفصال وقطع للعلاقات الرومانسية والاجتماعية والدبلوماسية لا يضيرها في شيء ولا يضير أهلها في شيء . . أما الانفصال الذي يلي الخطوبة فله في مجتمعنا للأسف أثر سيء يراه البعض من الذين يتدخلون في شئون الغير يقترب من الطلاق . . ويبدءون في تساؤلات لا تعنيهم في شيء من عينة "لم تركها" . . "هل بها شيء يشينه" . . "العيب في أهلها أم فيها" ؟!

كل تلك الأمور لا تعنيهم في شيء ولكنهم لا يهدئون إلا بعد تلقي إجابات غالبا لا تقنعهم، ولا أدري لما لا يوكلون الأمر للقضاء والقدر وأن الله لم يشأ بزواج وإن شاء الله أمرا فلا راد لمشيئته . . !

حشرات اجتماعية هم يهوون التسلل والتخفي في شقوق بيتك لتكشف خباياه!

لذا كانت سالي تخشاني بشدة في تلك الأيام . . الانفصال بعد الخطوبة يعقبه كوارث نفسية أغلبها بسبب المجتمع . . وأقلها بسبب الخاطب . . وفي نفس الوقت تشعر كأنها أصبحت كطارق بن زياد بن عبد الله بن رفهو بن ورفجوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو حين حرق السفن التي عبر بها البحر المتوسط في طريقه لفتح الأندلس ليقطع طريق العودة على جنوده، قائلة لنفسها . .

"أيتها السالي ، أين المفر؟ . . الزواج من أمامي والانفصال من خلفي وليس لي والله إلا الصدق والصبر . . فماذا أنا فاعلة . .؟!"

تشعر كأنها فأر حاصره صاحب البيت في ركن بيته . . هل تخرج له وتتحمل ضربات المكنسة التي قد تقضي عليها . . أم تنتظر وتصبر مكانها وتتحمل الجوع إلى أن يشاء الله ويتركها صاحب البيت أو أن يأتي أمر الله وتقبض روحه!

هي سالي وأنا أعرفها حق المعرفة . . ولذا فهي تفكر بهذه الطريقة ولا تحب أن تصبح في موقف ضعف من بعد قوة . . وأنا أحاول أن أقسم لها بأنني لن أتغير مع مرور السنين وأنني لم أخدعها كل تلك السنين التي مضت متظاهرا بالبراءة ولا أنوي على الإطلاق أن أخدعها مستقبلا . . فقط لتهدأ هي وتثق بي لنعبر تلك المرحلة وننهل من أنهار السعادة والحب بها حتى نرتوي.

من غيري عليه أن يتحملها ويحتويها ويحنو عليها حتى نعبر سويا تلك المرحلة ؟!

هذا دوري أنا ولا أحد غيري . .

* * *

* * *

أعلل النفس بالآمال أرقبها * * ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل

* * *

كنت قد أنهيت فترة العمل الصباحية ساعيا بين المستشفيات محاولا عبثا إقناع الأطباء بكتابة الأدوية المشبعة بسحر الكيمياء الشافية على المدى القريب القاتلة على المدى البعيد عن طريق إقناعهم بمفعوله السحري تارة وعن طريق إقناعهم بعروض شركتي الحصرية لهم تارة أخرى.

قابلت سالي لنتناول الغداء معا في مكان مفتوح بعدما أنهت عملها في المدرسة.

ما دمنا قد تقابلنا نهارا فسوف يتناول الحديث مشاكل كل منا في عمله . . أشكو لها من ذلك الوغد المسئول عن حجز الكشوف في عيادة الطبيب الشهير الذي طلب مني أن آخذ لفة إضافية على الأطباء الآخرين لأن الطبيب ذا الأهمية البالغة مشغولٌ حاليا لأن هذا الوغد لم يعد يملأ عينه الجشعة هذا القلم أو تلك المفكرة طامعا في مجموعة من الأقراص لتحيي أعضائه الميتة في لياليه الحمراء . . أما سالي فتحكي لي عن هذا المدرس الزميل اللزج الذي يتودد لها بدعابات سمجة عفا عليها الزمن فتوشك أن تنتزع أحشاءه حيا . .

فرغنا من غدائنا وحديثنا . . كانت سالي تنظر لي صامتة في ترقب يصهر أعصابي . .

- بقولك يا إتش . .

نظرت لها في انتظار الكلمات التالية رافعا حاجباي في ترقب . . عبثت في حقيبتها قليلا ثم أخرجت علبة سجائر مارلبورو حمراء تركيز ١١مج قطران و٠.٩ مج نيكوتين ووضعتها أمامي على المنضدة وجوارها قداحة فضية اللون عليها أسد ذبيح!

- أنتِ بتدخني من ورايا من أمتي يا سالي ؟!

سألتها في دهشة يملؤها الغضب ناقلا عيني ما بين السجائر وسالي . .

- ولو بشرب أنت هتحاسبني يعني ولا إيه ؟!

- آه طبعا صحتك . .

- بقولك إيه يا إتش . . صحتي أنا أدرى بيها . . وبعدين السجاير زيها زي أي حاجة بتضر الصحة . . القهوة الكتير بتعمل قرحة وبتضر الصحة . . الأكل الكتير التي أنت نسفته ده بيعمل دهون وسِمنة وبيضر الصحة . . رفع الحديد ممكن يبوظلك العمود الفقري ويجيلك انزلاق غضروفي ويضر الصحة . . حتى الأدوية بتاعتك دي بتعالج حاجات وتبوظ حاجات وبتضر الصحة . .

- أقتنعت أنا كده . . !

- مش مطالبة أنا أصلا أقنعك بحاجة . . عموما استريح أنا عمري ما دخنت على فكرة . .

- أمال إيه دي ؟!

قلتها في نفاذ صبر . .

- بص يا إتش . . أنت بتحبني ؟!

- ده سؤال يعني . . ؟!

- آه طبعا سؤال . . بتحبني ؟!

- سالي حبيبتي . . عارفة الكلبة اللي ماشية في الشارع دي . .

- كلبة ؟!

مع سالي كثيرا ما تتحول عيناها من العسلي للأحمر في فمتوثانية!

سالي ليست بمصاصة دماء . .

سالي ليست بمصاصة دماء . .

سالي ليست بمصاصة دماء . .

أرددها في عقلي محاولا بث الطمأنينة في قلبي قليلا . .

- يا ستي بلاش الكلبة . . عارفة القطة اللي ماشية في الشارع دي . . أنا بحبك أكتر ما أي قطة مرضعة وفي إجازة وضع بتحب ولادها . .

- ما علينا . . طيب ما لو بتحبني يبقى المفروض تنفذلي أي طلب أطلبه منك . .

- ما أنتِ يا سالي ما تقوليليش انتحر واتحرم من إني اشوفك تاني بعديها وتقوليلي أنفذلك طلبك ؟! . . وبعدين إيه علاقة طلباتك بالانتحار . . قصدي بالسجاير المنيلة دي . .

نظرت لي في يأس من غبائي الذي فشل أن يتفهم طلبها . .

- عايزاك تطلَّع سيجارة من العلبة دي . . وتولعها بالولاعة دي . . وتشربها . .

قالتها في بساطة وكأنها تطلب مني منديلا كي تتمخط !

- بتهزري ؟! . . باين عليكي . . أنا ما بدخنش وده مبدأ . . ولا ده اختبار . . ؟!

- يعني إيه ؟! . . هو أنت فاكر إن علشان تعرفني إن طلباتي أوامر زي ما بتقول يبقى اطلب منك قلم جاف

ولا مسطرة ولا كلينيكس – سوري يعني - أنف فيه . . ما لازم علشان أتأكد يا أستاذ يبقى الطلب صعب . . ده أنا أصلا - كتّر خيري - مختارة طلب سهل . . بص يا هشام . . أنا أصلا مش مستريحة وقلقانة منك من ساعة الخطوبة . . وبقول إنك مية من تحت تبن . .

- يا سالي . .
- افهم من كده أنك بتقولي بالزوق إن أنت من طريق وأنا من طريق ؟!

قالتها في حسم ! . . لو كان الموقِف يحتمل السخرية لأخبرتها أنني أفضل بالطبع طريق بلبيس يوم خميس على أن أدخن لفافة تبغ ! . . كانت وترا مشدودا بكل عزم حتى أوشك أن يتمزق . . تتحدث بغضبِ أنثى قادرة على أن تنفذ ما توعدت به!

كظمت غيظي وأمسكت علبة السجائر . . فضضت الغلاف كمن يفض بكارة عروسٍ قبيحة يكرهها أجبر على الزواج منها . . أخرجت سيجارة . . قربتها من فمي ورائحة التبغ تهيج أغشية معدتي فتتمادى في إفراز حمض الهيدروكلوريك اللعين . . أشعلت القداحة لينفث الأسد الذبيح نيرانه نحوي في نزعه الأخير . . قربتها من السيجارة بنفس الطريقة التي يقرب بها كذاب أشر لسانه من (البِشعة) ليلحسها . .

أسرع القليل من الدخان ليملأ رئتي والكثير منه لمعدتي ليأجج ثورة عاتية بها . . احتقن وجهي واحتبس الهواء بصدري وتكاثر الطعام هاربا من المعدة عائدا لفمي . . دمعت عيناي شاعرا باختناق . . سعلت وتقيأت الغداء في وقت واحد وفي تناغم منتظم . . انتهى فيض الطعام واستمر السعال

وكـأنني ماسـورة عـادم لسـيارة موديـل ١٩٢٣ تعمـل بزيـت التموين المدعم سيء الجودة . .

لكمـات عدة مـن مطرقـة فولاذيـة هـوت علـى ظهـري أنهـت السعال، تلاهن عدة أكواب من المياه كي أعود لحالة تشبه قليلا حـالتي الطبيعيـة . . ألهـث كلـصٍ قضـى ليلـة وضـحاها فـي مطاردة . .

كان كل من في المطعم ينظرون لي ما بين إشفاق على حالي وغضـب مـن القـيء الـذي آذاهـم برائحتـه الكريهـة . . ينظـر بعضـهم بـازدراء لهـذا الصـفيق الـذي سـرق ذهـب أمـه وباعـه ليصرفه على السجائر التـي بلا شك مليئـة بالحشيش المغربـي الفاخر . .!

كل ذلك يمكنني تحمله . . أما مـا لا أطيـق تحملـه فهـو نظرات سالي . .!

كانت تنظر لي والشرر يتطاير من عينيهـا التـي تحولـت للـون الأحمر مرة ثانية . . تحترق غضبا حتى يكـاد الـدخان أن ينطلـق من أذنيهـا مـن أسفل الطرحـة ! . . صرخت فـي غضـب بصوت أصمّ من في المطعم وأسمع من في القبور . .

- أنت إيه اللي عملته ده ؟! . . بتتخلى عن مبادئك وتضّر صـحتك . . لأ وبتخليـني يـا أسـتاذ أدخّـن سلبي كمـان . . عـارف سـمك السـالمون . . دول طلعـوا أذكـى منـك بمراحل . . يا خسارة يا هشام . . يا خسارة . .

حملت حقيبتها وتركتني ورحلت . . !

أكره المناقشات المبتورة !

أكره أن يستوقفني أحدهم في الشارع ليصفعني على قفاي ويرحل دون أن يفسر لي الأمر . . لا تشغلني الصفعة ويشقيني عدم وجود تفسير مقنع !

الجميع ينظر لي في عدم فهم . .

عامل النظافة الذي جاء ينظف الأرضية يمسك الممسحة وعينه تتسع عن آخرها وفمه يتدلى في بلاهة . . لم أكن في حالة تسمح بأن أعيد لسانه لمكانه بعد أن تدلى ثلاثة أمتار للخارج . .

مشرف المطعم عينه معلقة على الأطباق والأكواب يحمد لله على عدم وجود خسائر لمعركة لم تبدأ . .

أفراد الأمن يتحفزون للإمساك بي إن حاولت اللحاق بها ظانين ظن السوء بأنني أتهرب من دفع الحساب ولكن كانت قدمي طنين مثبتتين بفولاذ إلى الأرض ويسيطر على عقلي الذهول!

"كوميديا سوداء" هي الوصف الأقرب لهذا المشهد !

* * *

لم ترد سالي على مكالماتي ليوم كامل . . !

في اليوم التالي أجابت . . كنت أنوي أن أحطم رأسها وأنتزع لسانها وأطبخ أحشائها "كسجق وفشة وكرشة" كوجبة للغداء على ما حدث . . ولكنها فاجأتني بأنها غضبى !

لم أحدثها ليوم آخر . .

اتصلت بها . . أحاول إقناعها بأن الخطأ خطئها، ففشلت . .

الأنثى في تاريخ البشرية التي تعترف بخطئها، لم تخلق بعد!

حسنا، هل هكذا انتهت العلاقة وبإمكاني استرداد الشبكة أولا ثم أذهب لأشتري حبلا أعلقه في السقف وأنتحر شنقا تاركا وصية لكل رجل يأتي في المستقبل بألا يقترب من أنثى!

لم أقو على هذا الأمر . . أنا أحمق وأحبها . . !

اتصلت بها مُقرّا بخطئي الشنيع ومعترفا بأنني قد تسببت في كارثة كونية بسبب غبائي . . أنا في الحقيقة أغبى من أسماك السلامون ولكني لم أدرك ذلك من قبل.

وانتهى الأمر بي طالبا الصلح بباقة ورد ودستة من الشوكولاتة المستوردة . . انتهي الأمر بالتصالح المبني على أنقاض كرامتي المتهدمة.

* * *

* * *

إذا مرضنا . . أتيناكم نعودكم * * وتذنبون . . فنأتيكم ونعتذر

* * *

إنه يوم الجمعة . . !

تلك الجمعة لا تماثل على الإطلاق أي جمعة أخرى . .

اليوم يأتي المأذون بزيه الأزهري التقليدي المميز حاملا الدفتر تحت إبطه وفي يده المنديل المحلاوي الشهير الذي يمسح به العرق المتصبب منه أنهارا إذ يقضي أيامه ولياليه مهرولا بين الشقق والمساجد ليعقد قران هذا الشاب المفعم بالأمل وتلك الفتاة التي تخشى المستقبل . . وليس له عزاءا إلا في الألوف المؤلفة التي يتحصل عليها نظير عمله . .

اللهم لا حسد.

كان عقد القران في شقة سالي بعد صلاة العصر . . فاجئنا المأذون بمجيئه ببدلة عصرية ليس لي بفائض مال سنوي أشتري به مثلها . .

ساعة كالفين كلاين أصلية . .

حذاء فيرجامو أسود من الجلد الطبيعي الفاخر خرج لتوه من خط إنتاجه في إيطاليا . .

ثروة تمشي على قدمين تكفي لصا إن سرقها لعامين قادمين !

أتى متعجلا نافذ الصبر وخلفه مساعده يحمل له الدفتر والقلم والمنديل الساتان هدية منه للعروسين . . كان بالطبع لديه من ليلة الأربعاء الأوراق كاملة اختصارا للوقت . . أنهى الأوراق في عجالة . .

تبا لها جدته التي لم تعلمه أن بالعجلة الندامة !

جاءت سالي سعيدة ومتألقة ككوكب دري . . ألقى المأذون خطبة متعجلة . . وضعت يدي في يد عمي سالم وكأننا سنلعب الـ(رست) . . زوجني أبنتك . . زوجتك أياها . . وأنا قبلت زواجها على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى الصداق المسمى بيننا عاجله وأجله وعلى كل مذهب يصح عليه هذا العقد . . وانطلقت الزغاريد من كل النساء الحاضرات . . وخطف أحدهم المنديل . . أحضان وقبلات ومباركات . .

فرغت منهم سريعا ووجدت سالي أمامي والدموع كحبات اللؤلؤ تنساب من عينيها . . لم أتمالك نفسي . . انسكبت الدموع من عيني بلا استئذان . . كم كنت أريد أن ينفض هذا الجمع من حولي ونلتحم سويا لأول مرة في حضن عميق يكشف عن مكنونات الصدور . . اعتصرها بين أحضاني حتى تندمج داخلي في وحدة واحدة . . ينبض لجسدينا قلب واحد لا يعرف إلا العشق . .

كم هي رائعة دموع الفرح !

اليوم . . أصبحت سالي أخيرا زوجتي رسميا وقانونيا وعرفيا ولكن مع إيقاف التنفيذ.

* * *

* * *

فوالله، لولا الله والخوف والرجا * * لعانقتها بين الحطيم وزمزم

وقبلتها تسعا وتسعين قبلة * * براقة، بالكف والخد والفم

* * *

(١٣)

عام مضى على خطبتي لسالي . . وقد أتي يوم الزفاف الذي سيحتفل به الكون بأثره . . سوف يتذكره التاريخ لقرون تالية . . ها هي قصة الحب العظيمة التي جمعت بين هشام وسالي توثق رسميا ليبدئا معا حياة جديدة يملؤها الأمل ويحوطها الحب من كل جانب . .

لم أكن أرى سالي تقريبا في الأسبوع الذي سبق الزفاف . . مشغولة هي مع أهلها في تجهيز الشقة وملأ النيش والمطبخ وخزانة الثياب والتسريحة بأطقم الطعام والشراب والملابس الكافية لقرن قادم . . بالإضافة لانشغالها مع مصفف الشعر . . كانت سالي لثلاثة أيام متتالية تذهب لحلاق النساء . . "الكوافير" . . لا أعلم لم تحتاج أربعة أيام متتالية حتى تصبح جاهزة لليلة الزفاف ! . . كل ما تحتاجه سالي هو بعض اللمسات غير الضرورية على تلك اللوحة الفنية البديعة التي تتمثل في وجهها . . لا أتوقع أن حلاق النساء هذا وخبير التجميل الذي تتحدث عنه زميلاتها سوف يحتاج للمطرقة والأزميل والسنفرة وعبوات الدهان والمعجون أثناء عمله في وجهٍ لفتاةٍ مكتمل الجمال متناسقه كوجه سالي . . ولكن اللعين قال – وهذا رأيه وليس رأيي على الإطلاق – أن كل النساء سواء، يتظاهرن بالجمال وما هن إلا إناث الشامبانزي في ملابس البشر، ولكن الرجال المساكين يعميهم الحب ويغشي أعينهم . . وذكر لي هذا اللعين المثقف ما قاله الشاعر إلياس فرحات ويختصر في المثل الشعبي الذي طالما رددته جدتي

"مرايـة الحـب عاميـة" . .نظـر الرجـل للسـقف وشـرد ببصـره بعيدا قائلا . .

الحـب يذهب بالفوارق كلها * * ويحبب الشقراء والسمراء

ويجمل الشوهاء حتى لا ترى * *عين المحب حبيبة شوهاء

لو لم يكن مثقفا لقتلته فورا !

* * *

عندما يأتي المساء . . تُذبَح الشمس ويتم جرها على سطح السماء في رحلة عذاب يومية تستمر الليل بأكلمه لتبدأ يوما جديدا بعذاب جديد . . أشفق عليها وأنا أراها وقت غروبها تجر على سطح السماء محاولة في يأس أن تتشبث بالسحب المتناثرة ليتخضب الأفق بدمائها التي سريعا ما يخفيها ظلام الليل حتى لا تؤثر ذكراها الأليمة في نفوس العاشقين الحالمين الآملين في غد أفضل . . تذكرني الشمس كثيرا في ذلك المشهد اليومي بالفلاح الأصيل الفصيح محمد أبو سويلم - محمود المليجي – وهو يُجَر جرا في فيلم الأرض رائعة الراحل يوسف شاهين.

كنت ساعتها لست في حالة مزاجية تجعلني أبكي وأرثي الشمس الذبيحة وأنا أركب السيارة جوار هيثم في طريقي للكوافير . . تكفل هيثم بتزيين السيارة من الخارج بشرائط وألوان عديدة وورود مختلفة أنواعها مختلطة ألوانها تسر الناظرين . . مبالغة هيثم في تزيين السيارة جعلت منها شبيهة بسيارات الأرجوحة التي كنت أراها كل عام في مولد سيدي الشيخ سحلول المبارك . . أرتدي بدلة سوداء تماما تجعلني بعيدا عن الشبه بالفنران وبالتالي بعيدا عن مرمى نيران سخرية سالي القاتلة في تلك الليلة . . بيبيون أسود يزين عنقي جعل هيثم يعلنها صريحة بأنني أكثر وسامة وأناقة في تلك الليلة من أفلاطون !

تبا لك يا هيثم . . لا وقت عندي لاستخدام محرك البحث جوجل لأتأكد من وسامة وأناقة أفلاطون هذا من عدمها!

مشتت الذهن كنت . . ركبتاي تتصارعان سويا . . أخشى عدم التوفيق في هذه الليلة الهامة . . هل أوقف السيارة عند أقرب صيدلية وأشترى علبة فياجرا الأصلية إنتاج شركة فايزر حافظة ماء وجه الذكورة في العالم!؟ . . أم هل أتصل بحسن الدايدموني مندوب الدعايا الطبية بشركة فايزر نفسها لأتأكد من حضوره الفرح وبحوذته عينات طبية مجانية ترشيدا لنفقات كثرت؟!

- ما تاخد تكمر دي في جيبك . .

كانت هذه من سقراط الذي أخرج من جيبه شريط دواء لكبسولات خضراء تحتوي على الترامادول هيدروكلورايد من الذي يتم تعبئته وتشريطه أسفل السلم، ولفافة صغيرة عرفت منه أنها (سن) أفيون !

- يا ابني أنت عايز تسلمني للمركز في ليلتك دي ولا عايزني أسف الترامادول المضروب ده وألاقي حتة جبس نازلالي من اللامؤخذة في الحمام !

- يا ابني أنت ما تعرفش الأفيووووون . . ده سحر . . تصدق خسارة فيك !

متى تأتين يا صاعقة السماء لتضربي أم رأسه وحده وتنقذيه مني قبل أن أنتزع حنجرته!

حاولت التفكير في سالي وهي آتية بالفستان الأبيض وشعرها الأسود الفاحم يسترسل حتى منتصف ظهرها ويتوج ثغرها الدقيق تلك الإبتسامة التي لم أمل منها طوال السنين الماضية . . ببشرتها الشبيهة بالـ . .

- ياللا يا عريس . . وصلنا.

كانت تلك العبارة من حسام الشاذلي صديقي الذي يتولى القيادة والتي جاءت لتقطع حبال أفكاري جميعها . . خرجت من السيارة متوكلا على الله وإذ بسقراط اللعين عليه من الله ما يستحق يأتي بحركة لا أخلاقية لا يسلم منها أي عريس في ليلة زفافه!

- يا ابن الـ . .

- إيه يا عم باخد حقي وقتي يمكن ما نطولكش في الفرح . .

قسما بالله لانتزعن حنجرتك يا هيثم ولأعدمنك بالخازوق وأجعلك على ظهر حمار أجرب تجلس معكوسا ولأطوفن بك في أرجاء المعمورة ليقذفك الصبية بالحجارة مهللين في سعادة:

" العبيط أهو . . العبيط أهو "

فقط لتنتهي تلك الليلة على خير واذهب يا هستم فإن لك أن تقول في هذه الليلة لا مساس وإن لك موعدا لن تخلفه !

تمالكت أعصابي . . رسمت ابتسامة جديرة بعريس يوم فرحه متناسيا ما كان من سقراط اللعين ودخلت الكوافير . . وقفت في ممر طويل ضيق خافت الإضاءة تميل للإحمرار . . منتظرا البدر يوم تمامه أن يعطف علي ويظهر . . وما انتظرت طويلا حتى رأيتها قادمة . . فتحت زراعي في شوق كي تجري لتقفز بين أحضاني وإذ بلكمة عنيفة كادت أن تكسر كتفي . .

- إيه يا عم ما تفتح بروح (. .) . . دي مراتي . . أنت هتصيع ياله ؟!

كان هذا عريس آخر وقف خلفي ولم أنتبه له . . اعتذرت له . . تقبل اعتذاري . . فكرت أن أسأله إن كان معه قرص فياجرا ولكن من الواضح من قوة قبضته التي خشيت أن

أجربها ثانية أنه ملاكم محترف ولا يتقبل الدعابة في ذات الوقت . .

عروس أخرى جاءت تقترب من آخر الممر . . ليست سالي . . لن ينتظرنا الأهل والعشيرة كثيرا في قاعة الأفراح . . عليها أن تسرع قليلا ولترجئ ما تبقى من زينتها لاستكماله غدا أو بعد غد . .

- إيه يا هشام . . أنت هتفضل متنح كده ؟!

- مين حضرتِك ؟!

- حضرتِك ! . . مفيش حبيبتي ولا قلبي ولا كرشتي حتى؟!

كان هذا صوت سالي يصدر ممن ليست سالي !

كنت أحدق في وجه عيناه ليستا في محجريهما . . أترى حين أفقأ عينيك ثم أترك سوادين مكانهما هل ترى !. . دماء تلوث شفتيها . . وجه شاحب شحوب الموتى . . هذا المسخ قد التهم سالي فصار يتحدث بصوتها !

يا للمصيبة !

لقد رحلت سالي وهي الآن تستغيث في أحشاء هذا المسخ لا شك في ذلك!

كيف سأستعيد المقدم الذي دفته لقاعة الأفراح . . لابد من أن أبي قد نقدهم المتبقي من حسابهم الآن . . لابد أن ألحقه!

لك الله يا سالي . .

كم كنت أعشقك أيتها الراحلة الحبيبة . .

كيف لم ألاحظ الخطوات المترنحة وتلك المخالب الملطخة بدماء سالي البريئة . .

- هشام أنت بترتعش كده ليه ؟! . . أنت هتقلقني معاك !

كان هذا الصوت الرقيق الحاني القلوق يصدر من الكائن الواقف أمامي . . أمعنت النظر قليلا . . كانت تبدو كسالي مع كثير من التعديلات المرعبة . . هي أشبه بقرينة سالي التي عاشت يوما مع الهنود الحمر وقد تلطخ وجهها بكثير من الأصباغ وأسود جفناها فاختفت العينان . . لطخ أحمر الشفاه شفتيها بدرجة فاقت المعقول فبدت أشبه بمصاصي الدماء مع تلك الأظافر الصناعية التي طُلِيَت بالأحمر . . وجهها شاحب كالموتى من تلك الدهانات التي لطخته. . كان ينقصها شريط من الريش الملون فوق رأسها كي تكتمل الصورة!

ألا لعنة الله على الكوافير !

- آه سالي قلبي . . إيه القمر ده . .

- إيه رأيك يا إتش يا حبيبي بجد ؟! . . بس بصراحة . .

قالتها رافعة سبابتها الملطخة بالدماء في وجهي محذرة ثم لفت حول نفسها كراقصات الباليه الماهرات في فرقة البولشوي في عرض بحيرة البجع التي لحنها الموسيقار العبقري الروسي بيوتر إيليتش تشايكوفسكي وصمم رقصاتها الروسي يوليوس وينستل ريسنغر . .

كان بينوكيو حين يكذب يزداد أنفه طولا . . أما أنا فحين أضطر للكذب على سالي مجاملة كل لا تستشيط غضبا لجرحي غرور أنوثتها، كانت تتكاثف قطرات العرق على جبهتي فأسرع لمسحها فتعلم سالي أنني كذاب أشر . .

- أول مرة أشوف قمر ما تقدريش تفتحي عينيكي فيه من نوره.

قلتها ونظرت لزيل الفستان ماسحا عرقي الذي أغرق جبهتي كي لا تلحظ سالي . .

القليل من الكذب الأبيض لا يضر مطلقا . . هي أصبحت زوجتي رسميا وقد صار الكذب لمجاملتها حلال شرعا مثلما أخبرني فضيلة الشيخ هيثم سقراط صديقي حرقه الله بجازولين أسود متسخ وجعل من قبره دورة مياه عمومية في محطة قطارات مصر . .

- أنت بكَّاش . .

قالتها في دلال.

- وأنتِ قلبي . . ياللا بقى نلحق فرحنا بدل ما أبويا يقتلني وتبقى أرملة من أولها . .

- بعد الشر عليك يا حبيبي . .

- أيوووووه بقى حبيبك أنا . .

ركبنا سيارة مولد سيدي الشيخ سحلول المبارك . . وبدأ الشاذلي ينطلق نحو القاعة حيث كان الجميع في انتظارنا وكأنني الرئيس الحالي للولايات المتحدة العربية وحرمه!

اليوم هو الوحيد فقط الذي قد لا يتكرر خلال حياتك طالت أو قصرت الذي تجد نفسك فيه في موضع أهمية ولا تكتمل الفرحة بدونك . . اليوم الذي تنتقل فيه كـ(صفر) من يسار الواحد كقيمة مهملة إلى يمين الواحد . .

* * *

حفلات الزفاف جميعها أكرهها بشدة إلا إذا كان بها (بوفيه) مفتوح به ما لذ وطاب من أصناف الطعام التي تكشف الجشع الكامن في نفوس أغلبية الشعب المصري . . تشاهد هذه التي كانت تبدو ارستقراطية تنظر باحتقار إلى الجميع تراها وقد شمرت ساعديها وركلت هذا ودفعت تلك حتى تصل لأطباق اللحوم بأنواعها . .

تجد هذا الذي يبدو كرجال الأعمال الذين يملئون المغطس يوميا بعملات أجنبية صعبة ويستجمون به يُلقِي بـ(جاكت البدلة) ويفك ربطة عنقه الأنيقة ويغتصب الطبق الذي عبئه بأصناف الطعام وما إن يفرغ حتى يتجشأ بصوت يجذب انتباه الجميع تجاهه لترى فمه وقد (تلحوس) فلا يختلف كثيرا عن الأطفال الصغار الذين يمشون عرايا دون سراويل في قرية ميت السباع!

أما في غير ذلك فحفلات الزفاف هي مناسبات لا فائدة منها تجعل ضوضائها صراصير الكرة الأرضية تطير داخل رأسك وتتمنى الإنتحار للتخلص من أزيز أجنحتها واحتكاك أقدامها الخشنة بعظام الجمجمة . . يوم عالمي للغيبة والنميمة ونتف فراء العريس وعروسه وأهليهما . . عرض عام للفتيات الراغبات في الزواج ويتظاهرن بغير ذلك وللشباب الذي تتدلى ألسنتهم لدى رؤيتهم للفتيات في فساتين السهرة والماكياج غير عالمين بمظهرهن الحقيقي . . هن جئن حفلة لـ(هالووين) بأقنعة جميلة تسر بعض الناظرين!

أكره حفل زفافي أنا بالأخص حيث يجبرني الجميع على التقافز رقصا كنسناس يتيم في حديقة حيوانات الجيزة يطمع في بعض الفول السوداني . . يدفعوني دفعا للتخلي عن وقاري

وأبدأ الرقص الذي لم أكن يوما أجيده . . يتقازفونني في الهواء ويتلقفونني فيظن أهلي وأهل سالي بي الظنون . . لم يأت كل هذا الشباب لحفل زفافي إلا من أجل تلك اللحظة ومن أجل البحث عن عروس ومن أجل الطعام !

مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية في قاعة أفراح أدفع نفقاتها من لحمي الحي!

لم يا سالي لم تستمعي لاقتراحي ونتغاضى عن هذا السخف!

في فترات الاستراحة التي تتوسط حفلات رقص الهنود الحمر حول الشواء ليلا وأنا أجلس جوار سالي نتهامس مثلما يفعل جميع العرسان دون أن يسمع أي منا الآخر، أبصرت أيمن يقترب . . هو لمن لا يتذكرونه الزميل الذي قد أصبح صديقا والذي أعطته سالي درسا لا ينسى في أدب المعاملة مع الجنس اللطيف عندما كان طالبا مع سالي في نفس الكلية . . جاء مباركا على الزواج السعيد . .

لم أكن أحمل في تلك اللحظة أي ضغينة تجاه أيمن بعدما وعى الدرس وعلقه قرطا في أذنه ليتذكره إلى أن تعصف به الشيخوخة . . كان مقبلا نحونا وجواره خطيبته . . كم تغير كليا ! . . استطالت لحيته وحف شاربه . . زبيبة صلاة عريضة زينت جبهته العريضة كلها من أثر السجود . . سروال قصير نسبيا . . أصبح قاموسه اللغوي يحتوي على جزاك الله خيرا بدلا من شكرا . . وبالله عليك بدلا من والنبي . . وفي رعاية الله بدلا من مع السلامة . . انتقل بشدة من اليسار إلى أقصى اليمين . .

كانت اللكمات والركلات المتوالية عليه من سالي في حياته الدنيا كفيلة بأن يتذكر أن لهذا الكون ربا يجب عليه أن يخشى عذابه في الآخرة . . أصبح أيمن من بعدها وديعا كأبي

قردان . . مستقيما كعنق الزرافة . . عينيه التي تعلقت بالأرض من بعدها للأبد أمتنع عن رفعها في وجه أي مخلوق يحمل الكروموسومات (XX) حتى وإن كانت ملكة جمال الكون سالي سالم! . . ثم احتواه التيار الديني في الجامعة حتى أصبح كادرا من الكوادر التي يشار لها بالبنان . . هم كعادتهم لا يضيعون الفرص!

انتهى حفل الزفاف على خير من دون عيارين ناريين يطلقهم قريب لنا يسمى أبويا الحاج شمندي القادم من القرية كي يبلل سروالي بأعيرته النارية . . أو يصيب طفلا صغيرا قبل أن يغتصب قطعة الجاتوه خاصته.

عدت بصحبة أجمل فتاة عرفها التاريخ إلى شقتنا الجديدة وعش الزوجية المقدس . . لم أتمكن من حملها للدور الثالث بالطبع . . أنا أحتاج كل ذرة طاقة في جسدي . . لديك ساقين يا سالي من الأفضل رياضيا أن تستخدميهما . .

كنت قد بذلت مجهودا خارقا في حفل الزفاف يجعلني جديرا بأن أصبح بطلا لأحد الأساطير الإغريقية، فما أن دخلنا الشقة حتى ودعنا الأهل وأغلقنا باب الشقة . . والآن - مثلما انتظرت سنينا طوال - ها أنا وسالي في الشقة وحدنا . .

اللهم لك الحمد . .

* * *

كانت سالي في غرفة النوم تجلس على السرير وظهرها للباب . . اقتربت منها ببطء . . أتاني صوتها دون أن تلتفت إلي:

- أنت عارف أنا استنيت اليوم ده قد إيه ؟!

كانت تبكي والدموع قد أذابت الكحل من عينيها . . تبكي دموعا سوداء مرعبة . . أمسكت يدها وأنهضتها وجعلتها بين أحضاني في عناق طويل . . كان هذا ردي عليها الذي لا أعلم كم استغرق من الوقت . . الحضن الذي انتظرته دهرا ليمحي بقوته كل ألم في علاقتنا الطويلة . . الحضن القادر على ترميم كل تلك الشقوق والكسور التي طالت جدارية حبنا الخالدة . . أغمضت عيني لأرى شريط الذكريات الطويل يمر أمامي منذ عرفتها فعرفت الحياة . .

- طيب أنت كمان بتعيط ليه ؟!

لم أشعر ببكائي لولا كلماتها . . فاعتصرتها في حضني بكل الحب . . حلم جميل كنت أخشى أن استيقظ منه يوما قبل أن يتحقق على أرض الواقع . . كم أدميت روحي من الأشواك من أجل أن أصل لتلك الوردة الجميلة . .

أذوب عشقا في كل ما يمت لك بصلة يا سالي !

لم يفلح الشعراء بعد في وصف عشقي وهيامي بك . . ولن يفلحوا!

- خلاص بقى يا هشام أنا بطلت أعيط أهو . . إحنا هنكد على نفسنا في الليلة دي ولا إيه ؟!

- بحبك قوي يا سالي.

- وده اللي معلقني بيك يا حبيبي . . أنت عارف إني هحبك أكتر أمتي ؟!

- . . .

- لو ساعدتني بقى في فك الطرحة دي علشان الست في الكوافير مجبساها بمصنع دبابيس !

ابتسمت وطبعت قبلة على جبينها أودعت بها خلاصة حبي وعشقي وهيامي بمحبوبتي الوحيدة.

- أيوه كده أضحك يا أخي . . يا إما هخبي منك الحمام والبطة اللي في المطبخ.

عانقتها مرة ثانية ولكن تلك المرة تقديرا وشكرا لها ولأمها على الحمام المحشي بالأرز وذكر البط المشوي بالمطبخ.

بدئت ملحمة فك الطرحة من فوق رأسها . . لا يهم عدد الدبابيس التي أنغرست في أصابعي . . سأعتبرها أشواكا أخيرة تحول بيني وبين الوردة التي تزوجتها!

- عارفة بقى أنا هحبك أكتر أمتي يا قلبي ؟!

- تحبني أكتر ؟! . . أنت مش قولت أني خلاص حبك ليا مقفل قلبك من أوله لآخره ولا إيه ؟!

- يا قلبي أجيب من بكرة مجدي يعقوب بنفسه يركب دور تاني لقلبي ونفتحهم على بعض . . الأساسات تستحمل بدل الساكن كان وهيفضل طول عمره واحد . .

- إن كان كده فطلباتك أوامر يا حبيبي . . عايزني أعمل ايه علشان تحبني أكتر ؟!

- أبوس أيدك وراسك ورجلك تخشي تغسلي وشك من الميكب ده . . أنا والله مش متعود عليكي كده . .

- أنت مش كنت بتقول قمر وعينيك مش مستحمله نوره يا بكاش . .

قالتها في دلال، فأحطت وجنتيها براحتي يدي وأدرت وجهها برفق تجاه المرآة . .

- أنا بحبك أكتر يا قلبي وأنتِ طبيعية . . وبعدين الكحل الصراحة . . ولا أنتِ رأيك إيه ؟!

- ماشي يا سيدي . . أقنعتني . . بس بعدك بقى . .

أخذت بيجامتي الساتان التي أُجبرت على ارتدائها ودخلت الحمام لأنعم بالمياه الساخنة التي تبخر مع بخارها إرهاق هذا اليوم الطويل . .

- نعيما . .

- شفتي بتحول أزاي لما بستحمى وأنضف . . ياللا خشي أنتِ وأنا هستناكي بس ما تتأخريش بقى. . الحمام والبطِ هيبردوا ..

دخلت سالي الحمام لانتظرها لما يقرب من الساعتين، عندما خرجت أخيرا وجدتني نائما في الفراش وسيمفونية من الشخير المتواصل تعزفها أنفي في استمتاع مثلما أخبرتني سالي اليوم التالي، اكتفت بإطفاء النور ونامت إلى جواري . .

تصبحون على خير . .

* * *

لا أظن على الإطلاق أن أحدكم يهتم بما حدث في أسبوع العسل اليتيم الذي استطعت أن أحصل عليه كإجازة من العمل . . هي ليست مذكرات جنسية تصلكم على بريدكم الإلكتروني بعنوان "قصة مديحة" ولا تجدونها في المنتديات الإلكترونية بعنوان "ماذا فعل هشام في ليلة الدخلة" . . هو كان أسبوعا سعيدا جدا وحسب . .

أسبوع رأيت فيه الجنة وكانت سالي حورها العين . .

* * *

رحلة عبر التاريخ . . المحطة الرابعة:

كانت تجلس في المغطس المملوء بالماء الدافئ، وحول المغطس يتراص جواريها في انتظارها لعمل ما يتعارف عليه في زماننا بـ"الحمام المغربي والمانيكير والباديكير" . . فقد علمت أن زوجها على وشك الوصول وعليها أن تستعد له تماما حتى تثنيه طوعا عما يجول بخاطره . . فعينه الزائغة لا تشبع من النساء وهذا الرجل لا يمكنها ربطه بالأطفال أو ببعزقة ماله !

كم هو وغد هذا الرجل !

- وصل يا ستي . .

هكذا أبلغتها الجارية التي قدمت مهرولة لتزف إليها الخبر التي حسبته سعيدا . .

أنهت اغتسالها واستعداداتها سريعا فيما يقترب من الساعة ونصف الساعة واتجهت إليه في غرفة نومه حيث يستريح . .

- أيمن حبيبي أنت جيت أخيرا . .

- حبيبك ! . . قالولي إنك بعتيلي وعايزاني ضروري . . يا ريت ما يطلعش اللي في بالي علشان أنا جاي من سفر وتعبان جدا . .

- أيمن . . أنت دايما فاهمني غلط كده . .

قالتها في دلال تجيده.

- عايزة إيه يا نخلة المر . . خير ؟!

قالها في نفاذ صبر، لن يسمح ثانية لتلك الأفعى من الإلتفات حوله لكي تخنقه كما اعتادت!

- أنت معاملتك اتغيرت معايا يا أيمن . .

أنفجر أيمن في غضب جارف كبركان ظل خامدا لقرون وانفجر بدون سابق إنذار:

- معاملتي أتغيرت يا نخلة ! . . أنا اتغيرت؟! . .أيوة اتغيرت . . مفيش حاجة في الدنيا بتفضل على حالها . . عايزة تعرفي ليه بقى أنا اتغيرت ؟! . . إزاي تبقي على ذمة راجل ورايحة تستنجدي من جوزك براجل غريب؟!

- أنا . . ! ؟

قالتها في براءة أخوة يوسف بعدما رموه في غيابات الجب وجاءوا على قميصه بدم كذب !

- أيوه أنتِ . . مش بعتي تستنجدي بالملك الناصر يوسف ولا أمي اللي بعتتله !

- ما أنا غيرت عليك يا حبيبي من بنت صاحب الموصل القرشانة اللي لافت عليك وملقتش ساعتها حل تاني . .

- بقولك إيه ؟! . . بلاش اللف والدوران . . أنا زهقت منك ومن عيشتك . . أنتِ طهقتيني في عيشتي يا شيخة ! . . ومش عايزانى أدور على غيرك . . كل شوية بتدّخلي في شغلي . . أنتِ بتنسي أن أنا السلطان ولا إيه ؟!

خلعت نخلة المر برقع الدلال والرقة وانفجرت فيه بوصلة من (الردح) البلدي معددة له:

- جري إيه يا أيماااااان . . . أنت نسيت إنك كنت حتة مملوك يا راجل يا صعلووووك . . يا خدام

الملـووووك . . حتـة مملـوك لا راح ولا جـه وأنـا اللـي عملتك سلطان بعد ما كنت بتخدمني زمـاااان. . نسيت نفسك ولا إيه يا عرة الرجاااالة يا صنف من الحثالة؟!

- الله يـرحم السـلطان الصـالح شـمس الـدين محسـوب ياختي . . هو اللـي عتقك بعد ما كنتـي جاريـة مـالكيش سعر والجلخ والقشف كانوا هاريين جتتك . .

- علـى الأقل كنـت مخلصـة ليـه وعارفـة أن لحم (....) – كلمة خارجة لم يسجلها المؤرخون - من خيره . . مش زيك بعد ما كبرتك وعملت منك سلطان قد الدنيا وفي الآخر مش مكفيك مراتك الأولانية اللي كل يوم والتـاني بتروحلهـا مدلـدل لسـانك . . ولا أنـا طلعـت مكفيـاك كمان . . ورايح تتسرمحلي وتدور على واحدة تالتـة . . بنـت شـمس الـدين ألمـاظ . . أنـت فـاكرني نايمـة علـى ودانـي !

- أهـي راحـت التالتـة وفضـلت أنـا فـي أرابيـزك داهيـة تحرقك . . اتبطي بقى الله يغمك . .

- هـو أنـت يعنـي (...)– نفـس الكلمـة الخارجـة التـي لـم يسـجلها المؤرخـون- بـردت ؟! . . مـا أنـت رايـح تلـف وتدور على واحدة تالتة برضوا يا راجل يا ناقص . .

- أنـتِ جايبـاني تحرقـي دمـي ولا علشـان تعرفينـي أنـك ممشيه جواسيس ورايا يا ولية أنتِ ؟!

هدئت نبرة نخلـة المر فجـأة واستراحت قسماتها من عنـاء العبوس والاقتضاب . . تحركت نحوه وأحاطت بذراعيها عنقه ونظرت في عينيه نظرة تفضح رغبـة فـي لقـاء حميمـي وعـادت مرة ثانية للدلال الأنثوي الذي كانت تجيده هامسة:

- جري إيه يا أيمن بس . . أنا مراتك برضوا لسه يا أخي . . نسيت اللي كان بينا ؟! . . أنا لي حق عليك برضوا وأنت بعيد عني بقالك فترة والشيطان الله يحرقه أنت عارفه شاطر . . ونفسي في ليلة واحدة بس من ليالي زمان يا شقي أنت يا ميمونتي . .

شعر السلطان أيمن بتنميل يجتاح كل عضلة بجسده . . وتدفق الدم في عروقه بعنف وكأن قلبه بدأ ينبض للمرة الأولى في تلك اللحظة . .

- و الله يا نخلولتي . .

- يوه بقى . . هي لسه فيها نخلولتك . . ياللا يا راجل . .

وأظلمت الإضاءة من تلقاء نفسها لتترك ميمونتها ونخلولته وحيدين والشيطان ثالثهما . . !

* * *

من مخطوطات مؤرخ هذا العصر الميموني برقوقة ابن الزنفلي:

" . . . وحدث أن قتل السلطان أيمن وهو يستحم في تلك الليلة على يد بعض المماليك الذين استأجرتهم نخلة المر بعدما استيقنت أنه لن يرجع عما ينتويه، . . بلا بلا بلا . . ثم حملت نخلة المر لزوجة السلطان أيمن الأولى أم المنصور ضياء الدين فأمرت أم المنصور جواريها أن يضربن نخلة المر بالقباقيب على رأسها ثم ألقينها من فوق سور القلعة ولم تدفن إلا بعد أيام . . بلا بلا بلا . . "

المرأة في العصر المملوكي

* * *

(١٤)

كان هذا هو اليوم الأول بعد انقضاء أسبوع العسل اليتيم الذي لم تمنحني الشركة أخا آخر له . . إنه القطاع الخاص حين تظهر مساوئه في غير أوقاتها!

الساعة الآن السابعة صباحا وليس علي أن أتأخر عن الزيارات الصباحية في أول يوم يلي الأجازة . . تراني مستلقيا على الأريكة ممددا جسدي أتذكر سريعا أجمل سبعة أيام قضيتها في حياتي مع قلبي سالي.

آه من الحب وأفعاله!

لن تقدر أعتى عوامل التعرية على إزالة اسم سالي من قلبي والذي حفرته بقدر حبي وعشقي وهيامي بها . .

كنت أتذكر ذلك المحيط من السعادة اللامتناهية الذي رعاه كيوبيد بنفسه وأنا أسبح فيه سعيدا على مدار الأسبوع . .

أتذكر وجه سالي الباسم والذي لم تفارقه عيناي في اليقظة وفي النوم على السواء!

كنت ممددا على الأريكة حين خرجت ميدوسا من غرفة النوم و . . !

يا للمصيبة . . !

ميدوسا في عقر داري . . !

قفزت مختبئا خلف الأريكة يعصف بي الخوف ويعتصرني الذعر . .

مالي وميدوسا . . !

أتابع من أسفل الأريكة خطواتها تجاهي . .

نظرة من عينيها كفيلة بتحويلي لتمثال من الحجر يُوضَع في ميدان رمسيس بدلا من رمسيس الثاني الذي أحالوه إلى التقاعد . .!

هل الثعابين التي تتلوى بدلا من شعرها تلدغ . . ! ؟

آه لو علمت سالي بوجود إمرأة أخري في شقة الزوجية الطاهرة !

ألم يقطع بيرسيوس ملك أرغوس رأس ميدوسا من قبل ؟!

اللعين بيرسيوس خدعنا جميعا !

لا أحد في هذه الأساطير الإغريقية يقوم بواجبه على أكمل وجه !

إنها لا زالت تقترب . .

هل أخبرتكم الجرائد بزيارة محتملة من ميدوسا لمصر ؟!

تقوقعت على نفسي محاولا أن أبدو كسلحفاة بريئة حين شعرت بقبضة تطبق على كتفي . . كانت قبضة رقيقة!

- هشام . .

ميدوسا تتحدث العربية !

قفزت مذعورا في الهواء لأجد سالي تقف أمامي ! !

سالي !

لقد أختفى شعرها الأسود الفاحم الناعم وأصبح أقرب للأفاعي التي تتلوى من رأس الأخت ميدوسا . .

أصبح تحت عينيها قاتما . .

صُبغ حول فمها وتلطخ بأحمر الشفاة وكأنها طفل صغير أنتهى لتوه من اغتصاب طبق من البامية !

- جرى إيه يا هشام . . مش هتبطل فرجة على أفلام الزفت الرعب دي . . أنت كل شوية بتتشعف وهتبدأ تتخيل حاجات ما بتحصلش كده !

- آه . . غالبا ده بيحصل !

قلتها مبهوتا من صوت سالي الذي اكتسب خشونة لم أعهدها بها من قبل !

هل تدخن سالي النرجيلة على مقهى المشربية من ورائي؟!

- حد في شهر العسل يا راجل يفرج مراته قبل النوم على فيلم The Exorcist ؟!

- أنا قولت تغيير يعني . . أمال أشغلك Twilight اللي كله ملزقين ونحانيح ده . . دي كفاية البطلة اللي عندها أنيميا يا قلبي . .

- هو إن ما كانش ده يبقى ده ؟! . . رومانسي من يومك . . سيبك من كل ده بقى ؟! . . عملتلنا إيه ع الفطار يا أتشوتي ؟!

لقد تغيرت سالي بشدة لا شك في ذلك ! . . لم أعهدها من قبل تتناول وجبة الإفطار !

* * *

مضى شهر على هذا اليوم السعيد الذي جمعت فيه شقتنا الصغيرة المتواضعة شمل الحبيبين العاشقين الغارقين في بحر الهيام . .

من غير سالي وهشام ؟!

اللحظات الجميلة الرائعة تمضى كالبرق . . كلمح البصر . . لا تشعر سوى بطعم اللحظات السعيدة فتتدرك أنك عشتها بالفعل . .

مضى شهر بأكمله ولهذا السبب أجد سالي ترجوني أن نذهب لأحد الشواطئ للاحتفال بتلك المناسبة السعيدة . .

معها بالطبع كل الحق . . !

الزوج الذي يمضى على زواجه شهر ولم يقتل زوجته أو يصبح مجرما مطاردا أو يتقدم بطلب إقامة دائمة في مستشفى الأمراض العقلية هو زوج لم يوجد بعد . . فما بالكم بزوجين لم يعكر صفو حياتهما شيئٌ طوال شهر بالكامل ولم ينشأ بينهما خلاف واحد . . من هذا الزوج المحظوظ غيري الذي يتمنى أن يغرس عيدان الثقاب في أعين كل الحاسدين الحاقدين الطامعين في لحظات سعيدة ولو مرة في الشهر مع زوجاتهم !

أجبت طلب سالي بمنتهى الرضا والسرور . . أخذت يوم السبت مضافا للخميس والجمعة كأجازة من العمل بكل سهولة باعتباري عريس مستجد . . تشاهدونني داخل سيارتي أقطع الطريق الزراعي متجها إلى الاسكندرية عروس البحر المتوسط الحسناء الحالمة الهادئة . .

أرى البعض يبتسم في سخرية واضحة متعجبين من المدى الذي وصلت إليه من البخل للدرجة التي تجعلني لا أذهب لشرم الشيخ أو الغردقة في وقت لم تكن فيه قد اكتشفت مراسي!

أخبركم بكل صراحة بأنني لا زلت في بداية حياتي ولم أتعاف بعد من جراحة الزواج الخطيرة التي نزف حدث خلالها نزيف حاد للأموال من جيبي، ولست برجل أعمال في عصر الانفتاح ولا من كبار رجال الدولة في عصر الحزب الوطني المنحل ولست لصا وبالطبع لم أتاجر في السلاح ولم اقترب من تجارة المخدرات حتى تلك اللحظة . . فمن أين لي بالمال الذي يغطي النفقات في تلك الأماكن المتخمة بالرأسماليين!

ناهيكم بالطبع أن سالي نفسها تهيم عشقا بالاسكندرية وترضى بها ما دامت إلى جواري . .

هو شأن لا يعني غيرها وغيري كما يرى الجميع . .

كانت سالي طوال الطريق تلومني أشد اللوم على عدم أحضار أمي وأبي معنا . . كنت أدرك بالطبع أنها ما طلبت ذلك إلا من أجل إحضار أمها وأباها بالمثل . . لم تكن لترضى بعدم إحضار أمها لأن السيارة لا تكفي في أفضل الأحوال سوى لخمسة أفراد!

كم أنت بارة بوالديك يا سالي . . !

ولكم أفهمك بشدة . . !

* * *

في يومنا الأول استمتعنا بالماء المالح بدرجة كبيرة للغاية، وحين خرجنا من المياه ليلا كنا اشبه بالخيار المخلل !

كنت باعتباري سبّاحا ماهرا - لا اختلف كثيرا عن أبي زنيبة – أمارس السباحة لمسافات طويلة بعرض الشاطئ بحيث لا ابتعد داخل البحر لأكثر من متر . . أما سالي الجريئة فكانت رغم تحذيراتي تتعدى تلك العلامة الحمراء بمسافة كبيرة . . تلك العلامة التي تقف في عرض البحر محذرة بغير لسان:

"إيها الأحمق إن تجاوزتني مت غرقا بإذن الله"

كنت أحذر سالي من موضعي بأن البحر متغطرس مغرور أن عليها ألا تتحداه وهو أهوج ليس له كبير نرجع إليه بالشكوى، ولكن كنت كأنني أرفع الآذان في مالطة فلا تسمعني سالي في الاسكندرية!

في اليوم التالي كانت سالي تتعمد إدخالي إلي جوف البحر . . لم أكن ألقي بالا لسخريتها مني ومن جبني وأصر على مجاورة الأطفال على الشاطئ. . وأنا أذكر نفسي بقول الله تعالى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة" . . ولكن في مرة من المرات أصرت سالي على إدخالي لمسافة متر آخر لداخل البحر قاطعة على نفسها وعدا بمساعدتي إن حدث لي شيئا . . دخلت معها لثانيتين وشعرت بالخطر فعدت أدراجي للشاطئ . . فجأة لم أجد الرمال تدغدغ قدمي كسابق عهدها . . حدث ذلك في لمح البصر . . من دون وعي ظللت كالأبله أحاول أن أتشبث بالحياة فوق سطح الماء . . أضرب الماء بكفي محاولا الصعود لأعلى فما ألبث أن أنزلق إلى أسفل لتندفع المياه المالحة في جوفي . . ألامس الأرض بقدمي فأدفعها صاعدا لأعلى . . بالكاد أتحصل على بعض الهواء لأنزلق إلى أسفل مرة ثانية . . الموت يقترب . . أرى كل سيئاتي تعرض أمامي فأحلم بالنجاة وأرجو

الله أن ينقذني فلا أعصيه أبدا . . كم يظلم الإنسان نفسه بالمعاصي . . وجدت شخصا ما جواري كلما حاول أن يمسك ذراعي أفلت منه رغما عني وأنزلق لقاع البحر . . مستميت هو في محاولة الإمساك بي . . مغمض العينين كنت فلا أرى شيئا . . الماء شديد الملوحة فيلهب عيني ويسد فمي . . تعلقت بعنقه دون وعي لنبدأ الغرق سويا . . لم سأغرق بمفردي؟! . . خلال رحلة الصعود والهبوط سويا وجدت مطرقة عملاقة تهوي على قمة رأسي . . أشعر الآن بدوار محبب . . تعاقبت الضربات على رأسي من تلك المطرقة اللعينة والتي ما كانت إلا يد هذا الشخص . . كانت تصر على تفتيت جمجمتي لأموت بنزيف في المخ بدلا من الموت غرقا . . أظلمت الدنيا من حولي ولم أعد أشعر بشيء !

أموتا كان أم فقدانا للوعي ؟! . . لا أدري!

* * *

لقد نجوت !

ما دمت اكتب هذه السطور فقد نجوت، لا يحتاج الأمر للكثير من الذكاء!

كنا نحزم أمتعتنا استعدادا للعودة إلى منزلنا مرة ثانية بعدما كرهت كلمة (شاطئ) وأي حرف من مكونات هذه الكلمة اللعينة إلى الأبد، كانت سالي تحاول إثارة بركاني الخامد بعباراتها اللاذعة ساخرة مما حدث . .

- **كان لازم تشوف نفسك وأنت بتغرق . . مشهد روعة مش عايزة أقولك . .**
- **وليه ؟! . . ما أنتِ دي عاشر مرة توصفيه ليا أهو . .**
- **إيه يا إتش مش لازم أحكيلك اللي حصل . . أنت أكيد ما كنتش دريان . .**
- **معلشي يا سالي مكنتش فاضي . . عزرائيل كان بيتفاوض معايا . .**

قلتها في نفاذ صبر، فضحكت في براءة زاعمة أنه لا يزال هناك نساء بريئات ثم أردفت متعمدة استفزازي !

- **تتفاوض إيه يا ابني . . اللي يشوفك وأنت بتغرق ما يصدقش أبدا أنك دكتور بيطري . . لأ و Medical Rep. كمان ! !**

لم يعد في قوس الصبر منزع يا سالي!

- **أنا مش قادر أفهم إيه اللي بيضحك في الموضوع؟! . . وبعدين ما اعتقدش يعني أن كل الدكاترة البيطري**

بيعرفوا يعوموا زي القراميط . . وهو أنا كان المفروض أعلق يافته على قفايا بتقول "دكتور بيطري . . سيبوني أغرق" ولا " ميديكال ريب أنا هعرف أنيجوشييت مع عزرائيل" ! !

انفجرت سالي في ضحكات صافية تؤجج الحمم البركانية في داخلي فاستطردت:

- مش فاهم إيه اللي بيضحكك ؟! . . وبعدين كان لزمتها إيه رجل الديناصور اللي بتقولي أنها إيدك اللي كانت هتجيبلي ارتجاج في المخ !

- هشام أنت كنت بتحاول تغرقني معاك !

قالتها في استنكار متعجبة ولم تتوقف ضحكاتها !

- هو ده مش حلم العشاق في التاريخ كله أنهم يموتوا مع بعض ولا لازم أمشيها معاكي Ladies first ؟!

استمرت في نوبة الضحكات الهستيرية قائلة:

- يا ابني أنت بتقول بنفسك أن ده (حلم) العشاق . . أما في الحقيقة، لو أنت مت بعد الشر مين هيولول عليك ويملا الدنيا عياط وصويت . . مين هيشتريلك الكفن . . من اللي هيزور قبرك كل جمعة ويقرّي عليك بقرص بعجوة وفطير مشلتت !

لم استطع الرد . . !

ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب مثلما علمنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . . لو رددت عليها لانفجر البركان ولأحرقتها حممه الملتهبة القادرة على أن تصهر الصخر . . إنها اللحظات التي يصبح فيها

الطلاق أمرا لا إراديا يصدر دون وعي . . غضبان كنتُ كعشب أخضر في حديقة عامة لا ذنب له تدهسه أقدام العابثين غير عابئين بآلامه . .

لا أتخيل أن أدعو عليها بأن يحدث معها مثل ما حدث لي ولا تجد منقذا لترقد على إثر ذلك في قبر لتلتهم أحشائها الديدان وتخرج إحداها مفعمة بفخر الانتصار على جبروت الإنسان من فتحة أنفها مبتسمة باحثة عن بعض الهواء النقي . . أو تصبح أحسن حالا فتمسي وجبة لأسماك القرش المفترسة فلا يبقى منها شيء يذكر غير ذكراها في قلبي . .

لا يمكنني – إن استطعت لذلك سبيلا – أن أنهال عليها ضربا لأفرغ شحنات غضبي . . فلست أحمل هراوة في يدي واستتر بقطعة من فراء الدببة وآكل اللحم النيئ قبل اكتشاف النار كرجل حجري يحيا كحيوان ناطق . . أنا رجل عصري به قدر كاف من ميراث الحضارة الإنسانية لا تمتد يدي على إمرأة مهما فعلت . . هي أنقذت حياتي بطريقتها المؤلمة . . وأنا أحبها مهما فعلت . . هذا ما لا تدركونه ولكني أدركه!

أنني لأشقى بحبها . . !

* * *

لم يتحدث كلانا للآخر ليومين تاليين . . في البداية حاولت سالي مداعبتي لأنها تستوعب أسباب حزني وغضبي منها . . ثم آثرت الصمت . . حاولت أن أعيد الموضوع لطاولة النقاش . . ولكنها كانت تأبى . . تطلب الأمر أن أصالحها بباقة ورد . . وقد تم وانتهى الموضوع على خير.

تدفعني هي دفعا لهاوية الجنون!

المشكلة كانت تكمن في عدم مقدرتي على الاستغناء عنها . . ولا أهنأ بحياة يوما بغير رضاها عليّ مهما فعلت . . ويبدو أنها تدرك ذلك جيدا فتستغله شر استغلال . . !

* * *

* * *

إذا لم تخش عاقبة الليالي * * ولم تستحي فأصنع ما شئت

* * *

(١٥)

أهم مميزات الزواج تكمن في تواجدك لفترات أطول إلى جوار من تحب . . تنهار حينها الفواصل الرسمية . . تراك بملابسك الداخلية ولا تجدك منفرا . . لحيتك التي تنبت لا حاجة لك لحلاقتها كلما التقيتما . . تصحو من النوم كل يوم لتراك تتثائب كأفراس النهر وشعرك مبعثر وعيناك قد استوطن بهما العماص فلا تتأفف . . يتلاشى الخجل المتبادل على مائدة الطعام وتهجر أخيرا الشوكة والسكين وتعود لاغتصاب الطعام كعادتك حتى تشبع . . حينها إن تأكدت من حبها لك واستمراره فتيقن من أنها تحبك لشخصك حبا صادقا لا يمت لصلة بانبهار البدايات.

من كانت تتوقع أنها قد تزوجت من رشدي أباظة لتجد أنها قد تزوجت من عبد الفتاح القصري ولا يتسبب لها ذلك في صدمة نفسية وانهيار عصبي وتشنجات لا إرادية لهي حقا تحبك أنت وجديرة بحبك لها فلا تتخل عنها!

الأزمة الدائمة أن الجميع من الفتيات والشباب يعتقدون أنهم يتزوجون من الهيكل الخارجي الذي يرونه دائما أمامهم قبل الزواج . . الكل في أحسن هندامه . .

عرائس خشبية في فاترينات العرض في أبهى صورة !

لذا لم تكن صدمة سالي في شخصي مروعة أو تحتاج لجلسات من العلاج النفسي وشيزلونج وتسجيل للحوار على شرائط الكاسيت على خلفية من الموسيقى الهادئة عند الدكتور معتز التوني أستاذ ودكتور الأمراض النفسية!

حاولت كثيرا هي أن توجد الاختلافات قبل وبعد الزواج ولكنها فشلت في هذا الاختبار لأنه لم يكن ثمة اختلاف !

هشام قبل الزواج هو بذاته هشام بعد الزواج . . إن استثنينا بالطبع الكرش الذي بدء يزداد انبعاجه نسبيا بعد الزواج.

أن تكون على طبيعتك وفطرتك من البداية هو أفضل خيار للمقبلين على الزواج . . ولذا عندما شعرت وتأكدت من أن سالي تحبني بعد الزواج لم أكن أشك لحظة في زيف هذا الشعور . .

إن أثنيت على أي فتاة أمامها - حتى وإن كانت الجميلة يسرا اللوزي – استشاطت غضبا حتى كدت أرى سحبا خيالية تخرج من رأسها وهي داخلها تذبحني بدم بارد وتأخذ كبدي لإعداد الغداء إلى جوار المكرونة !

أصبحت تغار علي من أي أمرأة كانت !

هل تعرفون شيماء الشمطاء الخرقاء ابنة ابن خالة أمي التي لم أهتم بها يوما ؟! . . لقد أصبحت تغار علي منها !

هيثم جاء في ليلة وجعل يناد باسمي أسفل البيت . . حسبتها سالي النداهة وأقسمت علي بألا أخرج إليها !

تغار علي من النداهة !

هل هذا يعقل ؟!

في كل مرة كنت أخبرها وأقسم لها أنني لم ولن أجد أرق ولا أجمل ولا أروع منها وأن عليها أن تطمئن وأن تذبح ذلك الفأر اللعين الذي يلعب ويعبث ويصول ويجول – مجازا بالطبع – في صدرها . .

أخبرتها مرارا أن نساء العالم في قديم التاريخ وحاضره ومستقبله قد عقمن أن يلدن مثلها . . فكيف يلدن من هي أجمل منها في عيني !

ولكنها لم تكن تصدق . . أو تحاول أن تبدو كذلك !

* * *

لكم أكره الفتيات في بداية عملهن بمجال الدعاية الطبية !

تعتقد أغلبيتهن أن سر النجاح في هذه المهنة والضمانة الفعلية لاستمرارهن في هذا المجال تكمن فقط في التحول لعروس المولد المصنوعة من السكر! . . أراجوز في عرض على الصبية في الحواري والأزقة والقرى . . تتلطخ وجوههن بالأصباغ في مهرجان من الألوان التي تفتقد لأبسط قواعد التناسق . . الملابس لابد أن توشك على التمزق على أجسادهن . . كعب الحذاء لابد أن يصل ارتفاعه مترا راغبات في أن يخرقن الأرض ويبلغن الجبال طولا . . دلال يقترب إلى (المُحن) في حديثهن مع الأطباء فيطمع الذي في قلبه مرض . . وما أكثرهم !

أحمق أو حمقاء من أقنعهن بذلك . . !

هذا ما يصنع نجاح البداية لا شك . . ولكن لا يحافظ على استمراره . . أقول هذا بالطبع بغير اقتناع لكي لا اصيب المجتهدين باحباط . . اعترف بهذه وأقر . .

ليس لموقفي المعترض على هذا الموضوع علاقة بحرية الملبس والتعري والحريات الشخصية . . فليخرس أنصار حقوق الإنسان ها هنا وليأتوا ليشاهدوا ما نلاقيه نحن الذكور من معاناة في هذه المهنة . . تلك منافسة ليست عادلة على الإطلاق . . لن يحصلن أبدا على كأس اللعب النظيف . . استغلال للإمكانيات الأنثوية من ناحية، واستغلال لضعف نفوس الأطباء من ناحية أخرى . . فقط العدل والمساواة هي كل ما أطلبه . . من أجل تلك القيم تقوم الثورات عبر التاريخ إلا في

مجال الدعاية الطبية . . كم من طبيب لعين أنعم على أمثالهن من وقته بساعات طويلة ويكتفي مع أمثالي بثانيتين ! . . تلك هي المدة الكافية ليتأكد من أن القادم ذكرٌ . . وقد يحتاج لبضع أعشار الثانية كوقت إضافي لتستدعي ذاكرته إن كنت قد أبرمت معه اتفاقا من قبل أم لا كي يطالبني بتنفيذ وعود الشركة . . !

دعونا نتشارك جلسة نميمة ونتحدث عن سوسن . . سوسن هي النموذج المثالي لهؤلاء الفتيات اللاتي تحدثنا عنهن منذ قليل . . تبدأ عملها في مجال الدعاية الطبية بشركتي . . وقد أصّر مديري أن تستكمل تدريبها العملي معي في زيارات مزدوجة للأطباء أو ما يعرف اصطلاحا بالـ Double Visits . . وقد أخبرني على انفراد بأنه يكافئني بذلك . . !

نظرات الحسد تكاد تحرقني حيا من زملائي الذين يتساقط اللعاب من أفواههم المفتوحة في بلاهة وأعينهم تضع كل تفصيلة في جسد سوسن تحت الفحص المجهري!

فليتطوع أحدهم مشكورا وليأخذ هذا الدور . . ولكن مديري اللعين أصابه الله بإسهال لا يشفى منه رفض بشدة . . ليس للأمر إذا علاقة بمكافئتي . . هو يكرهني بالتأكيد وكلانا يعرف ذلك . . صارحني اللعين بأنه يخشى عليها من الاغتصاب على أيدي زملائي وإلقاءها عارية كيوم ولدتها أمها في إحدى المصارف المائية . . سُمعَة الشركة هي كل ما يهمه ويشغل باله ولا يهمه على الإطلاق سمعتي ولا يخاف علي من أن أحرق حيا بأعين زملائي الحاسدين!

لم أخبر سالي بالطبع بهذه المهمة الشاقة التي كُلِّفت بها من مديري . . كانت سالي لتصر على أن تذهب معنا ولا تفارقنا لحظة لأصبح أضحوكة الشركة والشركات المنافسة!

في أحد الأيام كنت أوشك على إنهاء فترة العمل المسائية أنا وسوسن . . وإذا بسالي تتصل بي !

- أنت فين يا هشام ؟! . . قالتها في حدة !

- يا حبيبي أنا في الشغل خلاص بفنش وهروح على طول . .

- أنت متأكد أنك بتخلَّص الشغل ؟! . . أنت لوحدك ولا معاك حد دلوقتي ؟!

لم تكن سالي تسأل . . قالتها وهي تدرك بالفعل أنني كنت أسير مع سوسن منذ دقائق ونحن الآن في سيارتي والشيطان ثالثنا . .

- لا يا حبيبتي أنا لوحدي . .

رمقتني سوسن بنظرات متعجبة . . فأشرت لها بسبابتي ارتباكا أن تلتزم الصمت . .

- طب ياللا يا حبيبي أنا مستنياك . . وصلها وتعالى . .

وقطعت الاتصال !

- مراتك دي ؟!

قالتها سوسن في تعجب يخالطه الاشمئزاز والازدراء!

- وحياة الحاج الوالد يا سوسن أنا مش ناقص . . آه مراتي مفيش غيرها وشكلها هتطين عيشتي . . ولاد الحلال سلموني تسليم أهالي . . أبوس إيدك ما تجيبي سيرة لحد في الشركة . .

- هتبوس إيدي متأكد بس ؟!

اللعنة عليكِ يا سوسن !

- لا يـا سـتي مـش قصـدي والله . . الله يحـرق اللـي فـي بالي . . قال بيكافئني !

- ومالك خايف كده ليه وجايب مية من كل حتة ؟!

قالتها غـامزة بعينهـا فـي سخرية ذات معنـى . . تثير غضبي تلك الإيحاءات التي تفتقر إلى الأدب ولكن لست في حالة تسمح بالرد المؤلم . .

- هو انتوا يعني ما يتخافش منكوا !

قلتهـا متمتمـا وأنـا أحـاول ابـتلاع تلـك الغصـة التـي سـدت حلقـي . . فمـي أصـبح كصـحراء جـرداء فـي وسـط صـيف لا يـرحم . . نضـب اللعـاب والـدم يتقـافز إلـي مخـي . . ضـغط الـدم ٤٧٠\٥٨٠ . . القلـب ينـبض بمعـدل ١٤٣٠ نبضـة فـي الدقيقة . .

ليلتك سوداء كاحلة يا هشام !

* * *

دخلت الشقة ورجفة تسيطر على أطرافي . . بحثت عن سالي فوجدتها تجلس على الفراش في غرفة النوم وتشاهد فيلما ما على اليوتيوب . .

- أنت جيت يا حبيبي ؟!

- آه . . الحمد لله يا قلبي . .

قالتها بنبرة طبيعية فأجبتها في ارتياب محاولا معرفة هذا الفيلم الذي تشاهده!

المرأة والساطور ! ! !

رائعة نبيلة عبيد وأبو بكر عزت التي تثير هلعي، كثيرا ما ابدت سالي إعجابها بهذا الفيلم في أكثر من مناسبة!

ليس هذا كل شيء !

كان على الفراش مجموعة مبعثرة من أكياس القمامة البلاستيكية السوداء وإلى جوارهم حقيبة سفر تتسع لأشلائي !

أخبار الحوادث الصفحة الأولى :

"يكثف رجال المباحث من جهودهم المتواصلة لفك السر وراء أشلاء الرجل المتفرقة في محافظات الجمهورية والتي أثبت تحليل الحمض النووي أنها لنفس الشخص المجني عليه والذي لم يستدل على هويته . . بلا بلا بلا . . وكانت الرأس محروقة الشعر بها تشوهات في الوجه وحروق نتيجة مواد ملتهبة، مفقوءة العينين منزوعة اللسان . . بلا بلا بلا . . ."

أترى حين أفقا عينيك . .

ثم أثبت جوهرتين مكانهما . .

هل ترى ؟!

كانت عيناي مثبتتان في بلاهة على أكياس القمامة السوداء، حين رفعت رأسي لأجد سالي تنظر إلي بعدم اهتمام.

- هو إيه اللي جايب أكياس الزبالة دي هنا يا قلبي ؟!

نظرت إليّ سالي في خبث وابتسامة متشفية على وجهها قائلة:

- مفيش يا حبيبي كنت لسه شارياها النهاردة ؟! . . مش هتاكل ؟!

قالتها سالي مبتسمة فتذكرت المتنبي العظيم حين قال :

*إذا رأيت نيوب الليث بارزة * * فلا تظنن أن الليث يبتسم*

هذه الليلة سأعرف شعور الدجاجة البريئة حين تذبح ولن أجد وقتا كافيا لوصفه ؟!

كثيرا ما يختلط الأمر عندي بين رقمي الإسعاف والنجدة!

الحق والحق أقول . . فكرة شرطة منع الجرائم قبل حدوثها التي وردت في القصة القصيرة "Minority Report " للكاتب فيليب ك. ديك والتي تحولت لفيلم لتوم كروز على يد المخرج ستيفن سبيلبرغ تبدو فكرة رائعة للغاية . . يا ليتها كانت واقع ملموس قبل هذه الليلة . .

*** * ***

لم تنتابني الشكوك يوما بسالي !

عندما جلسنا للعشاء كنت أثق تماما بأنه إن كان هناك انتقام ما بغير حساب فلسوف تستخدم سما زعافا ينهي الأمر في دقائق . . لن تعذبني سالي . . أكلت بنهم مجبرا حتى آخذ القدر الكافي من السم الذي يختصر الوقت والمجهود . . لا أريد أن اشعر بالألم ويدفعني اللاوعي للاستغاثة وينقذني الجيران وأعيش بقية حياتي أتعذب بفكرة أن سالي حاولت قتلي !

ولكن العشاء لم يكن مسموما !

أليس هذا العشاء الأخير ؟!

ألن نحتاج لدافنشي ليرسم لوحة أخيرة لهذا العشاء أوصي بعرضها بالمتحف المصري الجديد ؟!

ألن تأتي هذه المذيعة اللزجة لتسأل سالي بلزوجتها المعهودة عن دوافعها لقتلي؟!

- عايز تقول حاجة يا هشام ؟!

- الـ . . ، لأ مفيش يا حبيبتي . . أقول إيه بس ؟!

- طيب .

قالتها سالي وحملت الأطباق واتجهت للمطبخ . . لم تأكل معي حتى لا تصاب بالكوابيس مثلما قالت واكتفت بالجبن وكوب من الحليب . . قمت لأريح ظهري على الفراش لدقائق ولكنها امتدت لساعات !

آه من إرهاق العمل . .

كم اتبعتني سوسن في هذا اليوم !

* * *

منتصف الليل . . استيقظ على ضوء ساطع بشدة لمصباح مصلّت علي عيني تماما جعلني أفقد القدرة على الابصار بما حوله من ظلام . . شبكية عيني توشك على الاحتراق . . أحاول النهوض لأفاجأ بيدي مقيدتين بأحكام لبداية الفراش . . كذلك قدماي مقيدتان إلى نهايته !

في أي قبو لمخابرات أرقد !

الموساد ؟!

السي آي آيه ؟!

الكي جي بي ؟!

أم الجستابو ؟!

وما علاقتي بالمخابرات من الأساس ؟!

تراني في قبو يتبع أمن الدولة ؟!

إنها النهاية إذا مع لفافة بانجو ستدس في حلقي حتى اختنق وينتهي أمري دون أن يعلم بما جرى لي أحد . .

أحاول التذكر . .

هل شركتي التي اعمل بها شركة صهيونية مستترة !

هل دكتور مجدي حسيب زعزوع الطبيب وزير النساء يعمل لدى الموساد أو السي آي آيه وقد وشى بي وبالأموال التي تدفعها له شركتي مقابل أن يكتب أدويتنا ! ؟

لمن هذا الظل خلف المصباح ؟!

لم تطل تساؤلاتي التي كادت أن تعصف بعقلي وتهد أعمدته هدا . . اسمع صوت سالي يخرج من هذا الجسد الجالس خلف المصباح تماما وهو يتجه نحو زر الإضافة ليغمر الضوء الغرفة . . وأنا أغلق عيني وأفتحها كي تعتاد الإضاءة . .

- هشام حبيبي . . أنت أخيرا صحيت ؟!

قالتها سالي وابتسامة ساخرة تزين وجهها!

- سالي ؟! . . فيه إيه اللي بيحصل ؟! . . هي النداهة نادتني ولا إيه ؟! . . وإيه التكتيفة دي . . ماليش في جو الأفلام السيكو بيكو . . ما نمشيها ودي . .

- سيكوبيكو؟! . . ونداهة ؟! . . هنهزر ؟! . . يا ريتها كانت النداهة كانت نهايتك على إيديها هتكون أسرع . . أما أنا . . .

وأظهرت يدها التي كانت تخفيها وراء ظهرها لأرى الساطور الحاد الخاص بتقطيع اللحوم يلمع حده في يدها !

جاءتني الأحداث التي حدثت طوال اليوم فجأة وكأنها تصدمني في عقلي كقطار يبرق بأقصى سرعته . . سرت شحنة من الكهرباء في جسدي كله وبدئت ارتجف . .

- شايفاك كده بتتخيل نهايتك يا هشام . . ما تخافش . . مش هتحس بحاجة . . المنوم بيتهيألي لسه مفعوله ما رحش !

- سالي أرجوكي أعقلي . . أنا مستعد أعمل أي حاجة تطلبيها . . سيكوبيكو وأنا متقيد . . أغسل شراباتي . .

أمسحلك الشقة كل يوم . . أنشرلك الغسيل . . هشتغلك ببيبي سيتر لعيالنا لو اديتيني فرصة نخلفهم . .

- دلـوقتي مسـتعد تعمـل أي حاااااجـة ؟! . . ماشـي . . وماله . . أنا هقدملك عرض مش هتقدر ترفضه ؟!

من الواضح أنني قد خدعت طوال هذه السنين . . سالي تعمل مـع الأخ كـاريلوني فـي المافيـا ومـن دون علمـي . . العمـل بمدرسة خاصة هو غطاء للتمويه مناسب للغاية . .

- العرض بسيط قوي . . عايز تنفد بجلدك . . قولي بكل صراحة كل حاجة أنت مخبيها عليا . . وخلي بالك . . أنـا عارفـة الحقيقـة كلهـا . . أنـا عـايزة بـس اعتـراف منك . .

المجنونة التي تزوجتها ستقضي علي !

- اعتـرف بايـه بـس يـا سـالي؟! . . ده أنـا كتـاب مفتـوح والله . . ما قتلتش كنيدي . . مش أنا اللي رميت القنبلـة الذرية على هيروشيما . . مش أنا اللي أجبرت هتلر الله يحرقـه أنـه ينتحر . . مـا كلـتش ورك الفرخـة المشوية اللي كان فاضل في التلاجة إمباح . . و . .

- هنستهبل ؟!

سالي مجنونة بالفعل . . لا شك في ذلك . .

- خلاص خلاص . . أنا كلت ورك الفرخـة . . كنـت جعان والله العظـيم . . مـش هنكـر . . أنـتِ عارفـة الحقـايق كلها . . أوعدك بكرة . . ليه بكرة . . دلـوقتي حـالا أقوم أجيبلك نعامة . . طاووس كامل مشوي . . أجيبلك طـائر الرخ نفسه أقسم بالله مشوي . . بس سيبيني أعيش . .

أعطني حريتي أطلق يداي . . أنني قد أعطيت ما استخسرت شيئا . .

- مش قبل ما اعرف يا هشام بيه . . أفضل لف ودور . . معاك نص دقيقة تعترف . .

- طيب اعترف بإيه بس ؟!

- أتجوزت إمتي البت المايعة اللي كنت بتتسرمح معاها النهاردة . .

- أنا . . ؟!

الإنكار أحيانا يُفيد حتى وإن كان العقاب أكيدا . . من الجائز أن تكون سالي تختبرني . . إن كيدهن عظيم . .

- سوسن يا هشام أنجز . . أنت فاكرني نايمة على ودايني؟!

هي تعلم كل شيء إذا . . لا داع للإنكار . .

- سالي أنتِ فاهمة غلط ؟!

- فاهمة غلط ! . . ده أنت طول الليل ما بتبقاش دريان بنفسك وأنت نايم . . بحبك يا سوسن . . كفاية كده النهاردة يا سوسن . . أرفعي رجلك شوية يا سوسن . . أرجوكي يا سوسن . . مراتي مناخيرها حساسة أكتر من الكلاب البوليسية يا سوسن . . هتشم ريحة البارفان بتاعك اللي يهبل يا سوسن . .

ثم صرخت بصوت أوشك أن يثقب طبلة أذني . .

- أنا كلب بوليسي يا هشاااااام !؟!؟!؟

- ما أنتِ بتقولي أني قولت أنك أحسن منهم أهو يا سوسـ . . يا سااالي. .

كان لابد أن أتوقع ذلك . . هذه المهنة اللعينة سوف تكون سببا في القضاء علي إن لم يكن بضغوطها النفسية فبساطور سالي . . حسبي الله ونعم الوكيل يا سوسن الخرقاء . . عقلي الباطن لابد أن استجاب لعبارات الغزل غير العفيف على الإطلاق التي تنهال على أذني من زملائي عن سوسن وجسد سوسن وإمكانيات سوسن الخارقة . .

ألا لعنة الله على سوسن . .

ألا لعنة الله على زملائي . .

ألا لعنة الله على شركتي كاملة وهذا المجال بأثره . .

حاولت الدفاع عن نفسي قبل أن تثبت علي التهمة . . لا سبيل للنجاة إلا بمصارحة سالي - التي يبدو أنها قد جنت – بكل شيء . .

- سالي يا حبيبتي . . اللسان ده إلهي يتقطع من الحاجات اللي ما بنتحكمش فيها والله وإحنا نايمين . . زفتة الطين والقطران والمازوت سوسن دي واحدة متعينة جديد في الشركة ومديري الله يحرقه بجاز أسود وسخ هو اللي أمرني أدربها وأنزل معاها double visits . . لو قلتله لأ هينفوخني بتارجت أعلى وأنا تعبت من الحرق . . أنتِ عارفة يا سالي أني ما بحبش غيرك ومش في نيتي أصلا أني أحب غيرك . . علشان أنتِ حب عمري الوحيد . . والله . . أقسم بالله عمري ما عرفت عليكي حد ولا ممكن عيني تبص تاني لواحدة

غيرك . . مفيش أصلا أجمل منك . . ولا واحدة في الكون أفضل منك . . و . . و . .

ظللت لما يقرب من الساعة أتحدث . . لم يعترض حديثي إلا دمعتان تسللتا من عيني وانسابتا لداخل أذني وسالي تستمع دون أن تعترض حديثي . . ما إن انتهيت تماما حتى انفجرت الدموع من عين سالي أنهارا وكأن عيناها أصبحتا معينا لا ينضب . . قامت وفكت وثاقي . . احتضنتها في حب حضنا كاد أن يستغرق دهرا . .

- ده اللي كنت متوقعاه برضوا . . عديت من الامتحان يا حبيبي . . كنت لازم أتأكد من حبك ليا . . أنت ما تعرفش قهرة الواحدة لما جوزها يجيب سيرة واحدة تانية وهو نايم أو يتلخبط في اسمها وهو صاحي . . بتحرق من جوايا . . أنا قولتلك كتير إني بحبك . . علشان كده أنت لازم تحبني . . خد بالك من لازم دي . . لأن لو في يوم من الأيام أكتشفت غير كده يا هشام مش هتلحق تعرف حتى أنا هعمل فيك إيه . . أنت أثبت فعلا إني لحد دلوقتي الحب الوحيد في حياتك . .

- لحد آخر عمري يا قلبي . .

* * *

* * *

يبديـن وداكاذبـــا * * والغدر حشو ثيابهن

بحديث يوسف فاعتبر * * متحذرا من مكرهـن

* * *

آه من حويصلتي المرارية . . ليست من البلاستيك أو من المطاط وليس لها قطع غيار متوفرة عند الميكانيكي . . توشك أن تنفجر . . سالي تحول غرفة النوم لقبو بمبني مخابرات النازي وتخضعني لتعذيب نفسي كاد أن يقضي على قدرتي على الإنجاب . . فقط كي تتأكد إن كنت أحبها بالفعل أم لا لمجرد ذكري لسوسن في أثناء نومي !

هل للجنون تعريف آخر ؟!

* * *

رحلة عبر التاريخ . . المحطة الخامسة:

كان عائدا لبيته بعد عناء استمر طوال النهار الذي قضاه في ديوان الوزارة، وثمرة البطيخ تحت إبطه الأيسر تكاد تختنق من رائحة عرقه المميتة والجريدة في اليد اليمنى لم يقرأ منها حرفا بسبب ضغط العمل من ناحية ولأن عبد الصمد أفندي رئيسه المباشر عليه من الله ما يستحق كان قد أخذها منه كالعادة وظل طوال اليوم يحاول عبثا أن يحل الكلمات المتقاطعة في الوقت الشاغر ما بين قضاءه لصلاة الضحى وصلاة الظهر اللتان تستغرقان غالبا معظم ساعات العمل . . إنه رئيسه المؤمن!

الشمس لا ترحم صلعته الناصعة وتصر على شوائها حية . . يسرع مهرولا خلف حافلة النقل العام التي تكتظ بألوف مؤلفة من جميع طبقات الشعب الكادحة . . يتمكن بأعجوبة أن يتشبث بقفا مواطن شريف آخر على باب الحافلة . . في لحظة تسقط منه روحه . . تفر البطيخة هاربة من رائحة إبطه اللعينة لتتناثر أجزاءها على الطريق وتتحول لعجين يختلط حماره بخضاره !

ليس على وجه الأرض من هو أشقى منه !

ليس بحزنٍ ذلك الذي يعتصر قلبه ألما!

إنه يمر ببساطة بسكرات الموت !

كم كان يُمني نفسه بجلسة العصاري مع محاسن زوجته يتسليان باغتصاب تلك البطيخة محاولا من خلال مداعبات مشتركة أن يصل بمحاسن عن اقتناع إلى أعتاب الفراش المقدس ولو مرة واحدة في منتصف الأسبوع . . !

مرة واحدة تغسل روحه من هموم العمل وضغوط المعيشة في منتصف الأسبوع فليس بإمكانه الالتزام بليلة الخميس المقدسة فقط . . الآنسة ميرفت الزميلة الجديدة بساقيها الذين يقطران شهدا وبصدرها الذي لا يستقر في موضعه مشاغبا الناظرين تثير في خيالاته ما لا يحمد عقباه . . تؤجج نارا حامية مستعرة في قاع عقله الباطن تكاد ألسنتها أن تشوي بقايا إدراكه بالعالم المحيط!

ضاعت الآمال معك يا بطيختي الغالية !

ليس في الميزانية ما يسمح ببطيخة أخري!

دخل البيت لتستقبله محاسن استقبال زوجة موظف مصري مقهور مكسور مغموم مظلوم كادح مكافح لا يجد من يرأف به أو يحنو عليه !

استقبلته سائلة إياه عن الأموال التي طلبتها منه لأجل مصاريف البيت والسوق والمسحوق وفاتورة الكهرباء والملابس الجديدة . . .ألخ.

أعتاد منها على ذلك . . لِمَ يا محاسن لا ترهقين نفسك في البحث عن بعض التجديد؟! . . قابل تساؤلاتها بالصمت المطبق . . ولكن بعين المخبر السري التي تمتلكها محاسن زوجته لاحظت غياب البطيخة التي أكدت عليه صباحا أن يحضرها . . .

- فين البطيخة يا عباس !؟

لم يعقب عباس . . هي لا تدري بأحزانه وكأنه قد فقد أحد أبناءه بسبب الطاعون . .

- أنت اطرشيت ؟! . . بقولك فين البطيخة يا عبااااس . .

- وقعت مني وأنا بركب الأتوبيس يا محاسن . . سيبيني في حالي بقى . .
- يعني هي البطيخة تقع والجرنان ما يقعش أزاي يا عباس . . مستخصر فيا البطيخ يا عباس . . بتودي فلوسك فين قولي يادلعدي . . يا بختك المايل في جوزك يا محاسن . . جوزك عيل لسه بريالة مش قادر يشيل بطيخة ولا تلاقيه مستخصرها فيكي . . روح يا شيخ إلهي ربنا يسخطك حمار ع الأقل بيعرف يحافظ ع الحاجة اللي شايلها . .

انفجرت كماسورة صرف صحي متهالكة في أكثر شوارع العاصمة كثافة سكانية . . ولأن عباس قد فاض به الكيل من رئيسه في العمل ومن محاسن في البيت . . فقد تفجرت ينابيع الغضب في كيانه وراح ينهال عليها بالصفعات والركلات حتى كلت يداه وقدماه وتركها ودخل فراشه لينام مرتاح الضمير!

ويا ليته ما فعل!

* * *

جريدة الأهرام – صفحة الحوادث . .

"عثر رجال البوليس بالعاصمة على بقايا وأشلاء رجل في الثلاثين من عمره ولم يستدل على بياناته " . .

المرأة في القرن العشرين

* * *

(١٦)

في هذه الأيام ترونني ألهو ببساتين السعادة . . تسعة أشهر مرت منذ زواجي من قرة عيني سالي . . تسعة أشهر أمارس فيهم كل ما يمارسه زوج سعيد في حياته ويعشق زوجته . . أذهب للعمل صباحا وقلما أعود عصرا لاستمر في العمل حتى وقت متأخر من المساء . . أعود إلى البيت لتناول الغداء الذي أمسى عشاءا . . أدخل إلى المطبخ لأغسل الأطباق . . أنظف سريعا الشقة . . أدخل لأنام كالمومياء جوار سالي بعد أن أُشبِع عيني من بطنها التي تنتفخ تدريجيا كالبالون يوما وراء الآخر منذرة بإنفجار . . أثرثر كثيرا مع طفلي المستقبلي قبل النوم . . سالي التي تحمل في بطنها قطعة مني وتتحمل مشقة ذلك وحدها . . علي ألا أتعبها وأن أكون زوجا مثاليا كي لا يأتي المولود وحتى قبل أن يبدأ في صريخه المتواصل الذي يثقب الآذان ويمزق نياط القلوب ليصفعني على وجهي صارخا :

"تعبت ماما ليه أنت كنت بتتعبني أنا كمان يا غبي"

ما من أب يتحمل أن ينعته ابنه بالغباء !

تسعة أشهر ذاهبين عائدين على الطبيبة نتابع تطورات الحمل . . نرى في السونار سواد يتخلله سواد، وتكذب علينا الطبيبة ساخرة من حماقتنا مقنعة إيانا بأن هذا هو الجنين وقد تكون حينها تجعلنا نشاهد ونفغر أفواهنا من السعادة ونتراقص طربا ونحن لا نشاهد سوى معدة سالي أو طحالها!

تسعة أشهر أهرب من الجلوس في انتظار الأطباء في عياداتهم المملة لأجلس في عيادة طبيبة النساء والتوليد الأكثر ملالا، وسط نساء انتفخت بطونهن منذرات بكارثة انفجار

سكاني قادم . . لا يعلمن بأن المستقبل يحمل لهن إلغاءا للدعم يشمل كل شيء في الحياة سوى أقراص منع الحمل !

تسعة أشهر انتظر خلالها نافذ الصبر المولود الجديد الذي بشرتنا الطبيبة بكونه أنثى . . وكم كنت ارجوها من الله ليل نهار . . ادعوه بذلك مخلصا قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار حتى يتقبل دعائي وقد كان . . سالي أخرى ستملأ حياتي إلى جوار أمها . .

كم أنا محظوظ !

تسعة أشهر انقسمت لأشهر وحم ووخم وزحم . . كم اتعبتني بنيتي قبل ولادتها . . في منتصف الليل توقظني سالي لأحضر لها بطيخا في شهر ديسمبر ! . . تريد يوسفي في شهر يونيو . . أخبرها أن أشهر الوحم قد انتهت . . تنظر لي متوعدة بأن المولود سيأتي لنا بوحمة تغطي وجهه بالكامل ليصبح ويمسي لاعنا أباه الذي آثر الكسل على سلامة ابنه او ابنته !

تسعة أشهر ايقظتني سالي خلالها أكثر من ٢٤٠ مرة قبل الفجر . .

- شفت يا هشام . . آه . . البيبي بيتحرك وبيرفس !

تقولها في براءة !

- بجد ؟!

أقولها لاعنا اليوم الذي تزوجت فيه . .

- آه و الله حط أيدك كده . . حاسس برجليه ؟

- يا لهوي ع العسل . . ما تتعبش ماما يا بيبي علشان ما . .

اسقط مستكملا نومي قبل أن أُكمِل الجملة . . ما ذنبي أنا إن كان الجنين يركلها أو يدغدغها أو يأكل الحواوشي ولا يغسل يديه . . تلك مشكلته مع أمه ولا دخل لي بذلك . . إن تأخرت عن العمل صباحا سينتزع مديري حنجرتي ويلقيها للكلاب الضالة ليولد هذا الطفل يتيما . .

تسعة أشهر عانت خلالها سالي من القيء والصداع وانتفاخ الأقدام وهياج المعدة وركلات الجنين . . أعانك الله يا سالي . . حمدا لله أن خلقني ذكرا . .

غدا بإذن الله نهاية التسعة أشهر . . يأتي الطبيب والممرضة البدينة كالدب القطبي لغرفة العمليات ليقوما بأشد الاعمال بشاعة على مر الزمان . . إخراج طفل بريء من عالمه الهادئ إلى الحياة القاسية التي لا تعرف الرحمة أو الشفقة!

* * *

كنت طوال حياتي أتحاشى الاقتراب من الأطفال إلى أن يبلغوا عاما على الأقل . . يشبهون الفئران المبتلة وقت ولادتهم . . يكبرون قليلا ويظل قوامهم غير متماسك كالثعابين فلا أتمكن من حملهم . . عظامهم كالمكرونة المسلوقة في صلابتها . .

يكبرون قليلا فلا يضيعون وقتا حين تحملهم فيبللون سراويلهم إن وجدت قبل اختراع الحفاضات السحري . .

لكم أكره بشدة تلك اللحظات التي يطلب فيها الأقارب من أطفالهم أن يقبلون (عمو هشام) . . فأفواههم مبتلة طوال الوقت باللعاب وأشياء لزجة تحيط بأفواههم طوال الوقت ولا تعرف من أين أتت ولا كيف تُزال !

أما الزحف على الأرضيات وتعمد تكسير المزهريات القيمة والأكواب والتشبث بأشيائك الخاصة فكل تلك الأمور قد تُحتَمَل فقط حتى تأتي تلك اللحظة الحاسمة التي تنفرد خلالها بالطفل في غير وجود أهله لتضربه ضربا مبرحا، أو تعرقله لتصطدم رأسه بالحائط وتخرج على أهله متعجبا من سبب بكاءه وصريخه المبالغ فيه!

يتعمدون البكاء في الأوقات غير المناسبة . . في المطاعم . . في السينما . . وقت الزيارات العائلية . . وقت الواجبات الزوجية . . بكائهم كالصريخ يصم الآذان حتى يكاد المرء أن يهشم رأس هذا الطفل ويتسلى بطهي مخه بلا أي تأنيب لضمير !

اليوم تغير كل شيء . . نجلس مع أبي وأمي ووالدي سالي في غرفتها بالمستشفى في انتظار البشرى . . كانت تلك أقسى اللحظات التي مرت علي طوال حياتي . .

سلامة سالي أم سلامة طفلتنا ؟!

إن كان لي الخيار، فسالي . . لا عيش لي بحياة ليس بها قلبي . .

هل يحيا المرء يوما بغير قلبه ؟!

أثناء انتظارنا على صفيح ساخن دخلت علينا الممرضة البدينة . . حملت الطفلة من فراشها . .

- فين باباها . . ؟!

سألت الممرضة البدينة في غباء !

- سمّ الله يستاذ – تقصد (يا أستاذ) بالطبع - واتقل كده . . المدام في الإفاقة . .

جذبتني أمي من ملابسي وأشارت في قلق إلى الممرضة البدينة كالدب القطبي التي تحمل ابنتي، فتملكني خوف من أن تبدأ في إلتهامها . .

لم لا يعتمد وزير الصحة زيادات خرافية في رواتب الممرضات كي تحصل هذه الممرضة البدينة على مال يوفر لها طعام كاف ؟!

- عارفة شوربة السحالي بديدان الاسكارس . . دي نفس طعمها دلوقتي . . فيه أكل في التلاجة لو عايزة . .

مطت شفتيها في اشمئزاز وازدراء، فخطف عمي سالم الطفلة من يديها في مهارة يحسد عليها . .

- ده ايه ده يا خويا . . فين الحلاوة يستاذ ما تخدناش في دوكة . .

أخرج كل من في الغرفة ما جاد به من مال ووضعه في يد الممرضة التي نظرت إليه في احتقار واضح وتمتمت بكلمات غير مسموعة . . هي تسبنا بالطبع . .

دخلها الشهري من تلك الـ(حلاوة) لا شك هو أضعاف راتبي !

- ألف مبروك . .

أعطاني عمي سالم طفلتي فحملتها مبسملا في حرص وكأنني أحمل بين يدي وعاء من التراي-نيتروجلسرين شديد الانفجار . . رفعت الآذان في أذنها اليمنى وأقمته في اليسرى . . كم هي فاتنة الجمال . . تشبه كثيرا سالي . . نفس العينين . . نفس الفم . . نفس الأنف . . نفس الشعر المنسدل حتى ظهرها . . صورة ضوئية مصغرة من سالي . .

هي سالي أخرى في حجم عقلة الأصبع تصلح لأن تعلقها في سلسلة مفاتيحك . .!

كيف يتحمل العالم اثنتين بمثل هذا الجمال !

من المفارقات السعيدة في حياة الزوج أن يرى طفلته تشبه أمها بالضبط ليتأكد من إن كانت تكذب عليه وتخدعه سنينا بأنها - حين كانت طفلة - كانت شقراء بعينين أشد خضارا من أوراق الشجر . . يمكن للزوج حينها أخيرا أن يتأكد من مدى صحة هذه الأساطير التي تحكيها زوجته التي لا تختلف عنه كثيرا الآن إن وضع لها شاربا!

ساعة كاملة انقضت لتدخل علينا سالي مدفوعة على (الترولي) . . شاحبة الوجه . . العرق يغمرها وكأنها قطعت المسافة ما بين حلايب ومطروح جريا . . عيناها زائغتان . . أسرعت إليها وشددت على يدها طابعا قبلة على جبينها

أودعتها خلاصة فرحي بعودتها سالمة من غرفة العمليات التي تشهد الأفراح والأحزان بالتبادل . .

دفعتني حماتي حتى كاد ظهري أن يتهشم وتتفتت عظام فقراته، وانكفأت على ابنتها تطمئن عليها . .

تراجعت خطوات لأفسح لهم جميعا المجال للإطمئنان عليها واستقبلت القبلة لأبدأ صلاة خاشعة حمدا وشكرا لله عز وجل الواحد الأحد على إتمام الولادة بخير.

* * *

اختيار اسم المولود هو أصعب اللحظات التي تمر على الوالدين . . كل واحد منهما له تاريخ سيء مع اسماء بعينها تنعكس في رفضهم لتسمية المولود بهذا الاسم مهما كان يرغب به الآخر . . أما المشكلة الأكبر فتكمن في رغبة أحد الوالدين في تسمية المولود باسم أحد أفراد أسرته فيكون الرفض من الطرف الآخر حتى وإن لم يكن الاسم من الاسماء الغريبة أو ذات الوقع المنفر على الأذن . .

لم تكن تسمية طفلتنا شيئا يشغل بالي كثيرا . . فلنختر لها اسمها جميلا وحسب . . اسما لا يكون سببا في سخرية زملائها وزميلاتها منها في سنوات دراستها الأولى على وجه الخصوص فتعود كل يوم إلى البيت باكية لاعنة اليوم الذي وُلِدَت فيه، أو نجدها تختار لنفسها اسما آخر تُعرَف به خلاف اسمها الأصلي . . واجب علينا أن نحسن تسميتها لا شك . .

- هنسميها إيه يا هشام ؟

كان السؤال من سالي حين انفردتُ بها في صباح اليوم التالي في المستشفى . . ورغم توقعي له إلا إنني لم أفكر في إجابته من قبل . .

- تصدقي عمري ما فكرت في الموضوع ده . . سميها أنتِ يا قلبي . .

- لأ نسميها مع بعض . . لازم يكون ليك رأي . .

- مممم . . ايه رأيك في نسمة ؟!

رأيت شكا يخالطه الغضب يطل من عينيها المرهقة متسائلة:

- اشمعنى نسمة ؟! . . دي أول حب في حياتك مش كده يا إتش؟!

ابتسمت لدعابتها التي كنت أحسبها ليست بمقصودة . .

- خلاص يا قلبي . . سيبينا من نسمة خالص . . نسمة كخ . . إيه رأيك في بسمة ؟!

- ده نفس إيقاع الاسم يا هشام !؟

قالتها في حسم . . فقلت وقد بدئت الدماء تحتشد في أم رأسي منذرة بانفجار قريب وقد استشعرت جدية حديثها:

- خلاص يا ستي . . تبقى مي.

- آه أنت بتشاغلني بنسمة وبسمة علشان عارف إني هرفض فتقولي (مي) . . ويا ترى لسه بتحب مي . . ولا دي مندوبة جديدة معاكوا؟! . . ما تقولي سوسن بالمرة !

بدئت حمم منصهرة تغلي في رأسي فيخرج دخانها أسودا من أذني . . قلت في نفاذ صبر:

- سميها عتريس يا سالي علشان نخلص . .

- آآه . . عتريس ده أبو مي بقى . . مي عتريس . . مممممم . . اسم سينيمائي فعلا . .

- ارحمني يا رب . . سميها زي ما تسميها يا سالي والله ما أنا قايل اسامي تاني . .

- بتحلف علي يا هشام . . !

قالتها معاتبة في حدة . .

- يووووووووه . .

تركتها وخرجت من الغرفة . . كنت أريد أن أركل الأرض بقدمي وأضرب رأسي بحوائط المستشفى حتى تتفجر منها ينابيع الدماء بدلا من أن أصاب بجلطة دماغية أو نزيف داخلي . . ألا زالت سالي تشك في حبي لها بعد كل هذه السنين؟!

تبا لك يا هشام !

ارتفع صوت هاتفى بعد دقائق يعلن عن اتصال من سالي . . أخبرتني أنها قد استقرت على (ملك) . . لأنها رأت طفلتنا مي - أو إن شئت بسمة أو إن أردت نسمة أو إذا رغبت فهي عتريس – لها جمال ملائكي . . وكأن سالي – استغفر الله العظيم – قد رأت الملائكة!

فلتكوني (ملك) يا طفلتي العزيزة! . . تسميتك أوشكت أن تصيبني بشلل نصفي أو بجلطة دماغية!

ولكني رغما عن كل هذا أحبك . . وأحب أمك!

* * *

(١٧)

جاءت ملك إلى حياتي لتضفي عليها بهجة ما بعدها بهجة . . الآن وجدت من أشكو إليه من سالي فيكتم سري ولا يفشيه فيحدث ما لا يحمد عقباه . . أحببت هذه العضوة الجديدة في أسرتي الصغيرة التي حاذت على اهتمام سالي بالكامل، ولم أحزن على الإطلاق على إهمالها لي . . بكائها في الأيام الأولى الذي يفتقد الدموع يمزق قلبي ويشعرني بانهيار نفسي . . لا تعرف لبكائها سببا فلا تدرك له علاجا !

بكائها كصراخ ذئب يُشوَى حيا . . شاة يُسلَخ جلدها قبل أن تُذبَح . . شيطان يتلوي في السعير . . ولكنه لم يكن يزعجني البتة . . كأن العندليب حليم يصدح بغنائه في دارك ولا تطلب منه قط أن يتوقف إلا قليلا بسبب صداع يكاد أن يفتك بك!

كنت أشفق على سالي في الشهور الأولى . . ما فعلته معي طوال حياتها لا يستوجب العقاب الذي تكيله لها ملك . . كانت ملك تدفع سالي دفعا إلى هاوية الجنون . . تقتص لأبيها من أمها !

أن تحمل طفلا لدقائق أو لساعات يختلف تماما عن كونه ملزما منك طوال الوقت ولا أحد غيرك . . ليس هناك مواعيد ثابتة متصلة للنوم . . ليس هناك هدوء وقت الحاجة . . هناك دائما قلق الأم على رضيعها بسبب أي هاجس ينتابها . . لا نوم متصل . . تتثائب كثيرا . . حرارتها مرتفعة . . حرارتها منخفضة . . أصابها الإسهال . . أصابها الإمساك . . اختلاف صوت بكائها . . مضى أسبوع بأكمله على ولادتها ولا تتمكن

من الوقوف على قدميها ولا تستطيع أن تنطق (بابا) بشكل صحيح . . قلق دائم يساورها، ولكن رغم كل ذلك أثبتت سالي منذ الأيام الأولى أنها أمٌ بارعة تعرف كيف تعتني بابنتها جيدا على خلاف توقعاتي !

علينا أن نعترف أن ملك أعطتنا أكثر مما أخذت منا . . أن تنتظر لحظة عابرة فتر فمها عن ابتسامة ما لبثت أن اختفت فيتراقص قلبك فرحا . . أن تمس يدها بغير وعي يدك ليتوه كفها الدقيق في راحة يدك الشاسعة لهو نعيم الجنة الذي ينسيك ما تلقاه من نار الحياة الحامية!

ماذا يحتاج الرجل منا غير زوجة تحبه وطفل يملأ دنياه فرحة وسرورا ببكاءه وصريخه!

كنت خلال فترة الحمل فالولادة قد عقدت علاقة حميمة للغاية مع (طاسة) القلي ولم يعد الزيت المغلي ينثر رزازه الحارق على يدي كسابق عهده مثلما أثبت سقراط / هيثم من قبل . .

وبينما عبد الله الفقير يتسلى ويلهو مع الزيت المغلي، كانت سالي تعد الجدول الزمني لتدريبات ابنتنا ملك . . أين ستتدرب على الكاراتيه والكونغ-فو والملاكمة . . وكم طفلا ستضربه يوميا في المدرسة !

* * *

كبرت ملك قليلا ودخلت كأي طفل يحترم طفولته في المرحلة العمرية التي يشك فيها الوالدان في سلوك طفلهما . . يشعران بطفرات جينية تظهر على الطفل حين يتحول كثيرا لسحلية كبيرة الحجم نسبيا، يتسلق الجدران ويصل للأشياء المرتفعة بقدرة مدهشة ليتسلى بتكسير وتمزيق كل ما تطوله يداه . . بل يصل أحيانا كثيرة إلى المصابيح والنجف المعلق في سقف الغرفة حتى يوشك أن تصعقه الكهرباء لا قدر الله وما يترتب على ذلك من أمور لا تحمد عقباها من حدوث (قفلة) في كهرباء الشقة تستدعي رحلة شاقة من السعي الحثيث وراء الكهربائي لتتذلل له وترجوه وتتوسل إليه أن يقتطع قليلا من وقته الثمين كي يأتي لإصلاح ما أفسده الأطفال.

عصرٌ أصبح فيه الوصول لرئيس الجمهورية طلبا للمساعدة أيسر من الوصول لأي صاحب صنعة خاصة وإن كان سباكا أو كهربائيا !

بدئت ملك في سكب الشاي على منامتي المفضلة وتمزيق أوراق العمل وكانت تصر بشدة على وضع يدها المتسخة دائما بلا سبب في كوب الماء قبل أن أشرب منه!

ولأنني أدرك أنها تفعل ذلك عن قصد كي تلفت انتباهي إليها، فكنت أترك ما بيدي وأتفرغ لها تماما، وقد كنت كأي أب في نفس الموقف أمسك يدها الرقيقة وأضربها برقة مماثلة قائلا في عتاب:

- عيب يا لوكا كده كخ . .

فتظهر سالي في لحظة كأي أم في موقف مماثل وتصرخ في وجهي والشرر يتطاير من عينيها:

- جرى إيه يا هشام . . أنت اتجننت . . أنت عايز البنت تطلع معقدة نفسيا !

أكثرت سالي بشدة في الفترة الأخيرة من نعتي بالجنون !

تقولها وتنتشل ملك من أمامي وكأنني (العو) أو (البعبع) أو (أبو رجل مسلوقة) أو (الموءموء) الذين تخيف بهم ملك . . تأخذها إلى غرفتها وما تلبث ملك في دقائق أن تلقى بالوسادة على الأرض فتنهال عليها سالي بالضرب المبرح حتى لأخاف على ملك من أن تطفيء سالي بجسدها أعواد الثقاب وأعقاب السجائر!

أخشى أن تلاقي ملك من سالي ما لاقته جميلة بوحريد الجزائرية على يد الاحتلال الفرنسي !

كانت تفعل ذلك مع ملك باعتبارها أمها التي تربيها فتحسن تربيتها من أجل مصلحتها في المستقبل !

سالي أم نموذجية حنون هي وعطوفة على ابنتها وتدافع عنها إن تطلب الأمر حياتها وتبذل في سبيل تربيتها كل غال ونفيس حتى وإن كان حياة ملك نفسها !

* * *

(١٨)

كانت سالي تخاف على ملك كثيرا، بل أكثر مما ينبغي بلا مبالغة . . وتلك كانت مشكلة كبيرة للغاية!

من الطبيعي والمعتاد أن يصاب الأطفال في السنة الأولي بالإمساك والإسهال وقد ترتفع درجة حرارتهم لتصل لـ ٣٧ درجة مئوية وقد يرفضون الطعام قليلا وقد تطول فترة نومهم ساعة أو تقل ساعة عن المعتاد، قد يعطس الطفل قائلا (أتيشي) بدلا من (هاتشي)، قد يميل الطفل لامتصاص دماء الفئران ليلا . . كل تلك الأمور لم تكن تستدعي الذهاب للطبيب ست مرات إسبوعيا! . . ولولا أن الطبيب الذي نتابع معه ملك منذ الولادة لا يعمل يوم الجمعة لارتفع عدد الزيارات ليصل لسبع مرات أسبوعيا دون مبالغة !

لم أكن أترك سالي وملك في أي من تلك الزيارات حتى مع عدم اقتناعي بجدواها . . ولكن شاءت الأقدار أن تتصل بي سالي أثناء فترة العمل الصباحية ولسوء الحظ كان معي مديري المباشر في زيارات مزدوجة للأطباء . . لابد له من أن يبذل مجهودا وألا يكتفي بمتابعة العمل من المكتب كي يحلل الراتب الضخم الذي يتحصل عليه من الشركة مثلما ألمحت على الفيس بوك في إحدى المرات وفهمها هو كما اتضح لاحقا.

- أيوة يا هشام . . لوكا تعبانة قوي ولازم نروح للدكتور دلوقتي . . أنا حجزتلها . . تعالى خدنا ياللا . .

قالتها سالي في لهفة والتياع . . انتحيت بالهاتف المحمول جانبا، وحدثتها هامسا كي لا يسمع مديري صوتي . .

- يا سالي مش هينفع دلوقتي . . هجيلك على الساعة اتنين بالكتير . .

- وهي البنت هتستني للساعة اتنين يا هشام . . البنت هتفرفر مني . .

قالتها سالي في غضب لم استطع تفهمه ! . . حاولت تهدئتها قائلا في هدوء:

- يا سالي السوبرفيزور نازل معايا أهو مش هقدر أخلع منه . . ما تقلقيش البنت كويسة . .

- يعني هو الزفت السوبرماريو ولا السوبرمان ده وشغلك دول أهم من بنتنا اللي هتموت دي . .

وأنهت الاتصال !

سالي كثيرا لا تعطيني الفرصة للنقاش . . حاولت الاتصال بها مرة ثانية ولكنها كانت قد أغلقت الهاتف وترددت الرسالة المسجلة المملة:

"الهاتف الذي طلبته ربما يكون مغلقا مثلما ترى أيها الأحمق، من فضلك حاول الاتصال في وقت لاحق ولا تكن غبيا"

* * *

السـاعة الثانيـة والربـع بالضـبط كنـت أدخـل لعيـادة الـدكتور محفوظ المكتظة بالأطفال البـاكين والنسـاء الثرثـارات . . بحثت عن سـالي وملـك . . وجـدتهما ووالـدة الأولـى يجلسـن فـي أحـد أركان الغرفة . . كانت سالي متحفظة مقطبة الجبين . . أما أمها ما إن رأتني حتى نظرت لي فـي لـوم . . يبدو أن سـالي أفهمتهـا أنني كنت أعربد مع النساء في بيوت البغاء !

- لسـه فـاكر . . مـا كنـت تسـتني لمـا نتصـل بيـك علشـان الجنازة!

كانت هذه بالطبع سـالي بصـوت مرتفـع مشـحون بالغضـب . . كان كل من في العيادة ينظر لي في احتقار !

- يا سالي اهدي بس الناس بتتفرج.

قلتهـا محـاولا السـيطرة علـى غضـبي . . لـو أن بيننـا مشـاكل تفضي لحرب ضروس فلا داعي لأن يعرفهـا النـاس . . أفهمتهـا مرارا بأن تسيطر على غضبها في غير انفرادنا . .

- بلا ناس بلا بتاع روح كمل شغلك . .

قالتها سالي بغضب وأشاحت بيديها ووجهها ! . . قامت أمهـا واخذتني برفق رابطة على كتفي قائلة:

- معلشي يا هشام يا ابني، شكلها متضايقة شوية . .

- يا طنط أنتِ مش شايفة . . ؟!

قلتها والدماء تغلي في عروقي.

- حبيبي روّح أنت بس وأنا هخش معاها للدكتور وأهديها بعدين . . معلشي استحملها هي قلقانة على البنت . . ما تستناش تحت إحنا هنروح . .

تركتهن وانصرفت . . كانت العفاريت تتقافز باستفزاز أمام عيني بعد تلك الإهانة التي تلقيتها أمام مظاهرة من النساء والأطفال الرضع !

عدت إلى البيت وقد كدت أن أصطدم بشاحنة وأدهس أم بأطفالها وألقي بالسيارة لقاع النهر !

في الطريق استأذنت هاتفيا من مديري المباشر بأنني أحتاج باقي اليوم أجازة بسبب مرض ابنتي فوافق دون مماطلة، أدرك أنني لو كنت أنتوي التهرب من زياراتنا المزدوجة للأطباء لفعلتها صباحا.

انتظرت أن تعود سالي ولم يحدث . . اتصلت على هاتفها المحمول ولكنه ظل مغلقا . . اتصلت على هاتف أمها فأخبرتني أن سالي عادت معها لبيت أبيها وستعود بعد المغرب !

أرحت ظهري على الفراش قليلا وما لبثت دقائق حتى رن الهاتف الأرضي برنينه المزعج المثير للأعصاب . . رفعت السماعة فجاءني صوت خشن لا يخرج إلا من رجل ضخم الجثة بشارب كث ولا يفعل شيئا في حياته إلا تدخين المعسل والبصق على الأرض . .

- ألو . . خووو - ثم بصقة – اديني شلبي ياله . .

- ده مش رقم شلبي . . ويا ريت تتأكد من الرقم قبل ما تتصل . . ويا ريت تبطل (*****) - كلمة عامة تعني البصق - وشرب جوزة علشان الجوزة دي هتجيب أجلك إن شاء الله يا حيوان . .

- أنت بتشتمني أنا يا ابن الكلـ . .

لم أمهله الفرصة وأنهيت الاتصال واضعا السماعة قبل أن يكمل قصيدة السباب التي كان قد بدئها ويحفظها عن ظهر قلب حفظه لعنوان المقهى الذي يجلس عليه ولا يفارقه . .

في طريقي للفراش ارتفع رنين الهاتف مرة أخري . . سوف أتذكر في المرة التالية أن أنزع السلك . . كان في هذه المرة يأتيني صوت مراهق يتظاهر بأنه ليس كذلك يقول في أدب جم . .

- بيت الدكتور هشام الدكتور البيطري من فضلك ؟

- أيوة أنا هشام . .

- بارك لي يا دكتور هشام . . أتحقق حلمي زي ما أنت توقعت ليا . . أنا مش . .

أنا في غنى من أن أضيع وقتي مع شاب رقيع ! . . قاطعته والدماء تغلي في عروقي:

- هو أنا أكون قليل الذوق لو سألت مين اللي بيتكلم وحلم إيه وأنا مال أمي بالكلام ده ؟!

خرج صوت الشاب يرتجف:

- أنا علاء يا دكتور . . ليلو اللي كان معايا سلحفة. . اللي كان ساكن في البيت اللي جنبكم وأنت قلتلي إني لما هكبر هبقى دكتور بيطري زيك . .

حقا لم أتحمل المزيد من هذا السخف . . وضعت السماعة في وقاحة . . نزعت سلك الهاتف وعدت للفراش وإذا بالهاتف المحمول يرن . . أجبت بنفاذ صبر دون النظر للرقم . .

- ده مش تليفون زفت شلبي ولا هشام وأنا مش دكتور بيطـ . .
- هشام . . هو أنا متصلة أهرج . . ؟!

كانت هذه سالي ولم يفارق صوتها الغضب بعد . .

- أيوة يا سالي معلشي . . أخبار ملك إيه ؟!
- بص يا هشام علشان أنا روحي في مناخيري . . ملكش دعوة بملك علشان هي أصلا مش ضمن اهتماماتك . .
- سالي . .
- هشام من فضلك سيبني أكمل . . أنا قاعدة عند بابا لحد ما تشوفلك شغلانة تانية غير شغلة الدعاية دي . . وده آخر كلام عندي . . سلام . .

ولم تنتظر ردا وأنهت الاتصال !

أكثر ما يثير حنقي وغضبي قطع الاتصال فجأة بهذه الوقاحة !

لابد أن سالي قد جُنَّت!

لا تفسير آخر لما قالته!

اعتدت منها نوبات الغضب تلك ولكن ليس لهذا المدى . .

سوف أتركها قليلا لتهدأ وسوف أذهب غدا ظهرا لإرجاعها للبيت !

أحيانا يصبح لسالي تصرفات غريبة لا أستطيع تفسيرها أو تحملها . .

* * *

فـي اليـوم التـالي ذهبـت لبيـت عمـي سـالم متأهبـا لشـجار متوقع . . ثلاثة أقداح من القهوة شربتهم طلبا للتركيز وقرص يحتوي على السيرتيرالين ابتلعته طلبا للهدوء وللسيطرة على غضب يعصف بي سيزداد مع كلمات سالي . .

جلست مع عمي سالم في البداية والذي أخبرنـي بعدم رغبتـه في التدخل في الشئون الشخصية بينـي وبين سـالي لأننـي ابنـه كما هي ابنته ولأنه لم يعتد ذلك من قبل . . هـي مشـاكل خاصـة بنا وعلينا حلها سويا دون تدخل الأهل . .

كانـت سـالي فـي غرفتهـا فدخلت عليهـا . . كانـت هادئـة على غير المتوقع . . !

- لزمته إيه اللي أنتِ بتعمليه ده يا سالي ؟!

قلتها بعتاب واضح مسيطرا على انفعالاتي فأجابتني بهدوء:

- كلامـي كـان واضـح يـا هشـام . . شـغل الدعايـة ده مـأثر على بيتك . . بتهمل فيا وبقول مش مشكلة . . لكن مش هسمح أنك تهمل في بنتك كمان . .
- أهمل فـي بنتـي أزاي يـا سـالي . . بقولـك السـوبرفيزور كان معايا ومش هينفع أقوله أنا هقلبك . . مـش هيقتنـع إطلاقـا أن بنتنـا تعبانـة لـو حلفـت ليـه بـالطلاق . . هيعتبرني بتهرب منه علشان مـا يكتشـفش إنـي مقصـر فـي شـغلي . . أنـا عـارف دماغـه دي جزمـة قديمـة . . وأنتِ عارفة إنه حاطتني في دماغه طول الوقت . . أنـا

شغال في قطاع خاص يا سالي وكلمته متصدقه عن كلمتي . . هيقعدني في البيت بإسفين تمام منه . . ده راجل واطي . .

- خلصت ؟ . . أنا كلامي واضح يا هشام . . تشوفلك شغلانة غيرها !

- أزاي يعني طيب أشوف شغلانة غيرها . . احنا اتجوزنا وأنا شغال نفس الشغلانة في نفس الشركة وأنتِ عارفة طبيعة شغلي وقرفها وتعبها . . بس دي الشغلانة اللي بناكل ونشرب منها . .

- مش مشكلتي . .

قالتها في بساطة مستفزة !

- يعني إيه مش مشكلتك . . هصرف على البيت منين . . ولا إيه الشغلانة التانية في رأيك اللي ينفع اشتغلها . . أفتح كشك سجاير على أول الشارع ؟! . . ولا ألف بمناديل في المواقف ؟!

- من غير تريقة لو سمحت . . افتح عيادة بيطرية زي خالد زميلك . . اللي عايز يشتغل بيلاقي شغل . .

- وهي العيادة البيطرية دي مش محتاجة راس مال ومكان . . مش محتاجة أبقى موجود فيها من أول اليوم لآخره ؟!

- بس لما نحتاجك في أي وقت هنلاقيك . . تقفل العيادة وتجيلنا . . تشوف بنتك . . هتسامح نفسك إزاي لو بنتك حصلها حاجة وأنت مش موجود ؟!

لِمَ تصر سالي على تضخيم الأمور !!!

- لأ مش هسامح نفسي . . ومش بسامح نفسي وأنتِ بتقولي إني مقصر في حقك أنت مش في حق بنتنا بس . . بس ده مش حل . .

- ده اللي عندي . .

- يعني إيه ده اللي عندك . . أنتِ بتاخدي قرارات تخصني لوحدك ؟!

- أنت اللي وصلتنا لكده . .

قالتها في هدوء مستفز !

- وإن ما سبتش شغل الدعاية يا سالي ؟!

- يبقى الموضوع مش فارق معاك كتير . . وجودنا أنا وملك معاك زي عدمه وأنت بتختار تبقى لوحدك . .

- أنتِ بتهزري ؟!

- لأ مش بهزر . . طول الوقت وأنا عارفة أننا ملناش لازمة في حياتك . . فأدينا يا سيدي أهو بنريحك من همنا . .

- بس أنا ما اقدرش استغنى عنكم يوم . .

- كداب . .

- طيب يا سالي فكري تاني علشان اللي أنتِ بتقوليه ده معناه من غير لف ولا دوران ولا مواربة إنك شايفة إننا نتطلق لو ما نفذتش كلامك . . لازم كلامنا يبقى واضح وصريح وما يحتملش أكتر من معنى . . ده اللي فهمته ووصلني من كلامك . . مش كده ؟!

صمتت فتركتها وغادرت البيت قبل أن ينتهي مفعول قرص السيرتيرالين فأضطر لتهشيم رأسها . .

* * *

* * *

وإن تك قد ساءتك مني خليقة * * فسّلي ثيابك من ثيابي تنسلِ

* * *

إسبوع مضى منذ تركت سالي البيت . . كان إسبوعا حافلا . . كنت حانق على كل شيء . . تعديت بالضرب على طبيب ومساعده في عيادته بعدما مللت من سماجته واستفزازاته طوال سنتين . . تشاجرت مع مديري حين عاتبني . . خضعت للتحقيق بالشركة . . أعطوني أجازة مفتوحة لحين البت في أمري . . أجلس في المنزل بعينين أرهقهما طول السهر ولحية تنمو كحشائش الأرض لا تجد من يهذبها ولا شيء يؤنس وحدتي غير أقداح القهوة المركزة وسحب الدخان التي تملأ الشقة المتصاعدة من عشرات السجائر المحترقة . . سحب توشك أن تمطر على رأسي نيكوتينها وقطرانها فتغرقني لتقتلني اختناقا أو بفعل سمومها . . وجدت في السجائر ما أفرغ به غضبي . . أحرقها واحدة تلو الأخرى ثم أدهسها بقدمي بكل ما أوتيت من قوة مفرغا شحنات من الغضب والسخط اللانهائي . .

احترس التدخين يدمر الصحة ويسبب الوفاة . . وهذا ما كل ما أتمناه !

كيف تصفو الحياة بعيدا عن سالي التي أحببتها طوال عمري . . وملك التي أهبها عن طيب خاطر ما بقى في عمري !

رفضت بشدة تدخل أبي وأمي في الأمر . . سالي من أوجدت المشكلة وعليها حلها . .

قررت اليوم أن أخرج إلى العالم . . سأستحم للمرة الأولى بعد أسبوع كامل . . سأحلق لحيتي وأذهب لمقر الشركة محاولا إصلاح ما أفسدته بضيق صبري وغضبي . . نهضت من فوق الأريكة بغرفة المعيشة وكل عضلة بجسدي تئن وتشتكي إلى الله معلنة إضرابا عاما مطالبة بالراحة . . دلفت لغرفة النوم

محاولا أن أجد طريقي لخزانة الثياب لأبحث عن قميص نظيف لأرتديه . . ولكني لم أجد أحدهم . .

جثوت على ركبتي باحثا في الرف السفلي ومددت يدي أعبث بالملابس الشتوية علني أجد قميصا جديدا بين أطنان ملابس سالي الشتوية فإذا بيدي تصطدم بمجموعة من الأوراق تتظاهر بالبراءة في أحد الأركان . . حملتها للخارج فإذا بمجموعة هائلة من الكشاكيل مسلسلة بالأرقام وكتب على كل منها أعلى الرقم . .

"حتشبسوت وتمرد الكتكوت" !

حملتها إلى مكتبي وبدأت أتسلى بقراءتها وقد سيطر الفضول علي تماما . . كنت في البداية أعتقد أن هذا كتاب أو بحث تقوم سالي بكتابته ولكن اكتشفت بعد لحظات أنها لا تحوي أي معلومات تاريخية وإنما هي مذكرات سالي الشخصية !

لم أعرف يوما بأمر تلك المذكرات!

تملكتني رغبة عارمة في أن أعرف سالي كما تنظر هي لنفسها . . سالي وهي صريحة تماما . . كنت أعرف أن من الخطأ التام أن أفعل ذلك متعديا على حرية سالي وأسرارها الشخصية . . "ولا تجسسوا" هو أمر صريح من الله عز وجل لا يحتمل تأويلا . . ولكن تعرفون جميعا بأمر ذلك الفضول الذي أودى بحياة القط !

بدئت القراءة في المذكرات . . بدت عني ابتسامة وأنا أقرأ ماذا كتبت عني سالي في بداية مذكراتها . .

" أحببته منذ رأيته في الشرفة المجاورة . . أؤمن تماما بالحب الذي ينشأ مع أول نظرة . . وأنا أثق تماما في مشاعري . . ولكن لن أكون تلك البلهاء التي تثق برجل يحدثها عن حبه لها . . ينبغي علي أن أتأكد من حبه لي بشتى الطرق و . . . "

جعلت في شغف أقلب صفحات مذكراتها . . علني أجد بها جرعة أمل تعيد إليّ روحي وتحيي إيمانٍ بحبها لي قد مات في قلبي . .

* * *

"كان هشام في نظري وسيما كأبطال هوليوود . . جنتلمان كجورج كلوني على الرغم من صغر سنه . . ليس بمراهق أرعن أو مستهتر كبقية جيله . . كنت أهيم به عشقا . . ولكن ما كان لي أن اعترف بحبي وهيامي به . . أعلم أنه يحبني للغاية . . ولكن فلأدعه يحترق بنار الحب قليلا قبل أن أعلن التسليم"

* * *

جاء اليوم الذي انتظرته طويلا . . استوقفني هشام اليوم في الشارع وصرح لي أخيرا بحبه ليبرهن لي على شجاعته العاطفية التي كنت أراهن نفسي عليها . . واليوم قد ربحت الرهان . . شعرت بسعادة غامرة تماثل سعادة صلاح الدين الأيوبي حين دخل القدس . . ولكن لأنني امرأة تحت التمرين فلقد أردت أن أشعره بالذل العاطفي قليلا فلا أصرِّح له بحبي إلا بعدما يبكي كالأطفال وينوح كالنساء الثكلى . . لذا بكل سعادة صفعته على وجهه واستنجدت بالمارة و . . . "

* * *

"انتظرت طويلا أن يعيد هشام مصارحته لي بحبه فاعطيه اعترافا كاملا بلا أي ضغوط أنني قد أحببته منذ اليوم الأول الذي رأيته به . . ولكنه لم يفعل !

يبدو أنني قد اسئت التقدير حين صفعته في الشارع . . لم يكن يستحق ذلك، ويبدو أن ذلك الأمر أحدث في نفسه جرحا لن يندمل . . لكم أشعر بالندم على فعلتي التي ستفقدني من لم أحب يوما غيره . . "

* * *

"كيف لأمرأة أن تتأكد من حب رجلها لها من دون أن يقدم إثباتا قاطعا على ذلك !

اليوم طلبت من هشام أن يحلق شعره تماما، وأقنعته بكل الوسائل الأنثوية أن يفعل ذلك عن طيب خاطر . . وقد فعل . . المشكلة ها هنا أنه قد أصبح دميما وقبيحا للغاية ! "

** * **

" على أن أستفيد بعض الشيء من حب هشام لي . . عندما أنهى البحث الذي طلبته منه عن حتشبسوت بامتياز . . طلبت منه بحثا آخر . . انه يمتلك ذاكرة كذاكرة القطط وعليّ أن استغل ذلك . . "

** * **

" بدئت الفئران تلعب وتلهو في رأسي . . أخشى أن يكون هشام قد بدأ يلعب بذيله . . سمعته الليلة الماضية ينطق باسم "سوسن" . . من هي تلك الشمطاء التي تزوره في أحلامه . . أثق أن هشام يحبني ولكن ماذا يمنعه أن يحب سواي . . لابد من إخضاعه لضغط عصبي ونفسي يليق بما يتم في المخابرات الأمريكية وأمن الدولة . . لابد من اعترافه لي بكل علاقاته النسائية . . هو وسيم بدرجة تغري النساء حتى وإن كان متزوجا !"

** * **

"للأسف بعدما تسليت برؤيته يتعذب وقد كان كفأر تلهو به قطة مثلي . . كنت أتوقع منه أعترافا أو ذلة لسان . . ولكني تأكدت تماما من أنه لا زال يحبني وحدي و . . . "

* * *

توقفت عن تصفح مذكراتها عند هذا الحد . . يكفيني ما قرئت قبل أن يقضي علي الموت كمدا . . لم تكن قد كتبت بعد عن أسباب رغبتها في تركي لوظيفتي الحالية . . لابد أن الأمر من قبيل اختبار سيطرتها عليّ السيطرة التامة بعد الزواج والإنجاب . .

* * *

* * *

ولي حزن يعقوب ووحشة يونس * * وآلام أيوب وحسرة آدم !

* * *

(١٩)

حالة من اللاوعي والذهول وعدم القدرة على التفكير انتابتني مع انتهائي من قراءة مذكرات سالي !

كنت أشبه بشخص أخرجوه لتوه من سيارته بعد حادثة مروعة مع شاحنة على طريق سريع . . أفقدته الصدمة الشعور بأبعاد المكان والزمان . . وأفقدته النطق وعطلت ملكة التفكير!

سكين تلم يجز عنقي بلا رحمة!

يأبى ما بقى من عقلي تصديق ما قرأت !

خدعتني سالي طوال هذه السنين أكثر مما خدع رأفت الهجان الموساد الاسرائيلي !

صفعة على وجه كرامتي ورجولتي . .

كيف لم أصدق كلمات سقراط صديقي حين حدثني عن شكه في حب سالي لي ؟!

هل هي حقا تحبني ؟!

بل أليس من السذاجة والغباء التفكير في إجابة لهذا السؤال بعد كل ما قرأت !؟

كيف يستقيم ويصح حب قائم على الإذلال !؟

ليس إذلالا مؤقتا أو عارضا . . هو إذلال ممنهج !

آلاف الأسئلة تعصف بعقلي وإجاباتها تدفعني حثيثا لهاوية الجنون !

لِمَ تفعل سالي معي كل ذلك ؟!

هي مؤمنة تمام الإيمان بأنني أحبها، فلم تُصِّر على أن تعبث بي كل هذا العبث !

تحملتها دهرا . .

تحملت نوبات غضبها . .

تحملت هياجها . .

تحملت عصبيتها . .

لم أقابلهم جميعا إلا بالصفح والعفو والغفران . .

أما جزاء الإحسان إلا الإحسان ؟!

ويبقى السؤال الذي يلهب حيرتي . . لِمَ قبلت بالزواج مني ؟!

هل لتبقيني إلى جوارها دمية تلهو بالعبث بها !

هل تلك هي نظرة سالي لي ؟!

أما أمثل لها أية قيمة ؟!

كرامتي لديها تساوي صفرا ؟!

وكيف يحيا الرجال إذا امتهنت كرامتهم ؟!

كيف ينظرون في المرايا فيرون رجالا ؟!

هناك فرق شاسع بين الذكورة والرجولة . .

قديما قرأت لكاتب أحمق بأنه لا كرامة في الحب ! . . عفوا يا سيدي . . لطالما آمنت بقولك حتى اكتشفت خطئه الفادح !

اكتشفت أنني مثلك تماما . . أحمق آخر في طابور الحمقى الطويل الذي يمتد عبر التاريخ . .

تلك النسوة لا غاية في نظري من خلقهن إلا لثلاث . .

- يعذبن رجالا فيصبحون شعراءا ينظمون قصائد الشعر لتتناقلها الأجيال فيثرون اللغة، ويُثقِل حفظها الطلاب في مدارسهم . .
- يعذبن رجالا آخرين فيصبحون فلاسفة وحكماء تتناقل أفكارهم الأجيال ولا يلتفتون لعمق مغزاها.
- ينجبن رجالا معذبين بعقدهم النفسية من أثر من عرفوا من النساء فيصيرون سفاحي نساء يقضون عليهن.

هؤلاء سفاحي النساء برأيي هم الرجال بحق !

حقيقة واحدة تأكدت منها في ذلك الوقت . . لم تعد سالي تصلح لي بعد كل ما قرأت . . أسوأ شيء أن ينكشف الحجاب عن ينابيع الصراحة بين اثنين . . لو أن بالإمكان أن يقرأ كل شخص ما يدور في عقل الآخر لما بقي على الأرض إنسان . . تجميل الحقائق هو ما حافظ على البشرية إلى يومنا هذا من الانقراض . . ولقد اطلعت بغبائي على ما في عقل سالي . . ويا ليتني ما فعلت !

يا ليتني ظللت أحمقا . . أحبها ولا أنتظر المقابل وأتصبَّر بأوهامي أنها تحبني وحسب . . أحيا في حلم جميل لا استيقظ منه حتى تصعد روحي إلى بارئها . . أن أحيا في دنيا الأحلام الخادعة سعيدا، خير لي من أن أموت كل لحظة بسكين تلم في دنيا الواقع المرير!

لقد أيقظت نفسي بنفسي من حلمي الذي أقنعت نفسي سنينا عدة بكونه جميلا !

أليس الانتحار بحل سحري يُنهي تلك المأساة التي كشفت الستار عنها !

هذه سالي التي كنت أحسبها ملاكا قرر أن يحيا بيننا على الأرض وقد تجلى في صورة بشرية ليكشف عن نفسه لنراه نحن البشر . . فما بال باقي النسوة ؟!

كم كنت أحمقا !

وصية أوصي بها كل من جاء من بعدي وعرف حكايتي ألا يكتفي بمصمصة الشفاه تحسرا على ما آل إليه حالي . . عليه أن يعي الدرس كاملا . . وألا يضع وقتا في تعريف الماء بأنه ماء!

لا تصرح بحبك أبدا لأي فتاة حتى وإن كان اسمها سالي وتروقك وتسكن جوارك . .

لا تجري لها أبحاثا في التاريخ خاصة وإن كان عن حتشبسوت . .

لا تحضرها معك في دروس التشريح إن كنت تدرس بأي من كليات المجموعة الطبية . .

لا تطع أمرها إن أمرتك بحلق شعرك ككهنة آمون . . لو لم يكن لشعرك أهمية ما خلقه الله لك . .

لا تستجب لها إن أمرتك بتدخين السجائر . . فالسجائر ستدمر صحتك ولسوف تتسبب في وفاتك إن أمهلتك من تحب الفرصة لتحصل على ميتة طبيعية . .

إن أكرمك الله وتزوجت بمثنى وثلاث ورباع فلا تخبر زوجتك الأولى حتى وإن كنت تحت تهديد مباشر من ساطور . . بل حاول أن تتأكد دائما من أن بيتك ليس به ساطور من الأساس . .

لا تقترح أبدا اسما لابنتك أو ابنك . . وإن اقترحت اسما فلا تتخلى عنه حتى وإن انتهى الأمر بخنق هذا المولود . .

الدماء تغلي في رأسي . . تكاد أن تتفجر أنهارا من عيني . . أشعر بضغطها على الشعيرات الدموية الرقيقة بأنفي . . أخشى انفجارها في مخي . . لا وقت لنزيف بالمخ . .

أريد أن يمهلني القدر وقتا كافيا كي أهشم هذا الكون فوق رأسها وأنتزع أحشائها لأطهيها للضحايا من الرجال الأبرياء على مر التاريخ . .

لا أعلم كم مضى من وقت وأنا في مكاني أحدق في اللاشيء أمامي . . عيني مثبتة على الحائط تشاهد شريط حياتي الأسود يمر أمامي ملطخا ببقع الدماء من قلبي الجريح . . هل شاهد أحدكم أسدا ذبيحا يحتضر . . أنا هذا الأسد قد ذُبِحت لتوي وها أنا أحتضر!

لا أدري كيف خرجت من الشقة وكيف قدت سيارتي ولا أدري كم من الوقت قضيته أقود سيارتي في الشوارع بلا وعي !

لا أدري كيف قادني عقلي نحو بيت عمي سالم . . عندما فتح الباب ووجدني أمامه رأيت وجهه يتخفى خلف معالم الشفقة . . لابد أن هذا الرجل يشعر بالقهر الذي ينتابني . . لابد أن سالي لم تأخذ جيناتها الأنثوية كاملة إلا من أمها خديجة . . لا تحتاج دائما لأن تقلب القِدر على فمها كي تصير البنت كأمها . .

لك الله يا عمي سالم !

- اتفضل يا ابني ادخل . .

- سالي وملك فين يا عمي . . ؟!

- دول خرجوا يا ابني من نص ساعة تقريبا . . اتفضل على ما يرجعوا يا هشام يا ابني، مش هتفضل واقف على الباب . .!

تركته وانصرفت دون رد أو تحية سلام . . وجعلت أهيم على وجهي حتى غلبني الإرهاق فركنت السيارة ونمت نوما يكتظ بالكوابيس حتى استيقظت وقد أتى الليل واستفحل فعدت إلى البيت . .

* * *

* * *

وليل كموج البحر أرخى سدوله * * علي بأنواع الهـــــموم ليبتلـي

ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي * * بصبح وما الإصباح منك بأمثل

* * *

(٢٠)

عندما عدت إلى الشقة صدمتني المفاجأة . . !

كانت الأنوار مضاءة في كل الغرف . . ورائحة عطرة تملأ أرجاء الشقة . . رائحة عطر سالي المميزة !

- أنت جيت يا إتش ؟! . . كنت فين كده ؟!

خرجت العبارة في قلق من سالي التي رأيتها تخرج من المطبخ حاملة ملك بين زراعيها !

نظرت لها نظرة خاوية . . هرعت إلى غرفة النوم لأجدها مرتبة ولا أثر للمذكرات على الفراش !

مذكراتها اختفت !

أعقاب السجائر التي حِكتُ بها سجادة للأرضية اختفت !

الفوضى التي عمت أرجاء الشقة طوال أسبوع اختفت !

الشقة نظيفة وكأنها جديدة في انتظار عروسين !

رائحة الطعام الشهي تفوح فيسيل لها لعابي !

كانت سالي تقف على باب الغرفة تنظر لي في تعجب ودهشة !

- هشام فيه حاجة ولا إيه ما تقلقنيش ؟!

فتحت خزنة الثياب وبعثرت الملابس على الأرض ولكني لم أجد أثرا للمذكرات !

جثوت على أطرافي الأربع وبحثت أسفل الفراش ولم أجد شيئا !

- كان فيه هنا كشـ . . كشاكيل . . كان فيه هنا كشاكيل قبل ما أنزل راحت فين ؟!

- كشاكيل إيه يا هشام مش فاهمة ؟!

- أنتِ فاهمة وأنا فاهم . .

قلتها بصوت حاد أفزع ملاكي الصغير ملك . . فبدئت في البكاء الذي يمزق نياط قلبي . .

ليس هذا الوقت المناسب يا ملك . .

- هشام فزعت البنت . . إهدى فيه إيه . .؟!

قالتها سالي في لوم . . لابد أنني قد جننت . . إما كل ما سبق كان حلما . . وإما ما أعيشه الآن حلما آخر !

"أنا لم يصبني الجنون بعد !"

- حبيبي أنت مش مظبوط بقالك فترة . . قوم خد دش كده علشان نقعد نتغدى . .

قالتها سالي واضعة يدها على كتفي في حنان الذئاب . .

لم أكن أنتوي استكمال شجار أمام ملك . . لن أرتكب جريمة أن ألوث فطرتها بآثامنا نحن البشر . .

أخذت ملابس نظيفة لا أعلم كيف وجدتها في خزانة ثيابي ودخلت الحمام . . ظللت تحت الماء الدافئ لنصف ساعة أو يزيد . . حلقت لحيتي وتوضأت . . لابد من بعض الهدوء لأتمكن من التركيز قليلا . . جلست على مائدة الطعام صامتا شاردا وسالي تنظر لي في تعجب ودهشة !

أكلت القليل من الطعام ونهضت صامتا دون أن أنبث بحرف وذهبت للفراش دون حتى أن أغسل يدي . .

أرهقني التفكير كثيرا وأنا ممدد على الفراش حتى غلبني النوم . .

"أنا لم يصبني بالجنون بعد !"

*** * ***

استيقظت الساعة الثانية بعد منتصف الليل . . عندما فتحت عيني وبدئت اعتاد الظلام، رأيت سالي ترضع ملك على كرسي جوار الفراش . .

- أنت صحيت يا حبيبي ؟!

نظرت لها نظرة خاوية طالت دقائق بوجه لا يحمل أي انطباع . . ثم تكلمت:

- احنا اتخانقنا من إسبوع علشان كنتِ عايزاني أسيب شغل الدعاية . .

قلتها في هدوء محاولا السيطرة على براكين الغضب التي تستعر داخلي . .

- لحظة نرفزة وراحت لحالها يا هشام يا حبيبي . . شيطان وكان عايز يوقع بينا . . ماما بتقول الحسد بيعمل أكتر من كده . .

قالتها سالي في هدوء مماثل يختلط فيه العتاب بالإقرار بالذنب !

- وأنت رجعتي النهاردة . . صح ؟!

- أنا غلطت يا هشام ولما اكتشفت ده كان لازم أصلح غلطي . .

قالتها في هوان ونكست رأسها للأرض !

- لما أنتِ جيتي الشقة كانت متبهدلة وكان . . كان فيه سجاير على الأرض . .

- سجاير ! ! !

قالتها في دهشة أكاد أقسم أنها عفوية !

- آه سجاير . .

- أنت حد كان قاعد معاك . .

- محدش يا سالي . . أنا اللي كنت بحرق في أم السجاير علشان ما أولعش في أم الدنيا دي باللي فيها . .

قلتها في هدوء جازا على أسناني حتى كادت أن تتهشم . .

- من إمتى وأنت بتشرب سجاير يا هشام . .

- دي مش الإجابة . .

- لأ أنا لما جيت كانت الشقة متبهدلة شوية بس ما كانش فيه سجاير خالص !

كل كلمة من كلماتها كانت تعريفا صريحا للصدق !

- يعني أنا بخرَّف ؟! . . دي طعمها لسه في بوقى . .

قلتها في حدة وقفزت من الفراش لأعبث في جيب سروالي لأخرج علبة سجائر مارلبورو أحمر وقداحة عليها شعار فريق يوفنتوس الإيطالي . .

- دي إيه دي طيب ؟! . . أنا مش بخرف أهو . .

قلتها في حدة . .

- وطي صوتك يا هشام والنبي البنت هتتسرع . . وبعدين دي علبة مقفولة يا هشام . . شربت منها أزاي !

نظرت لعلبة السجائر لأجدها بكرا لم تفض بكارتها بعد !

شعرت بالدوار وأن قدماي لا تقويان على حمل جسدي الثقيل . . فاستندت على الفراش . .

خيالات وضلالات تسيطر على عقلي ؟!

لقد جُننت بالفعل !

لم أكن لأطيق أن أبقى مع سالي حينها تحت سقف شقة واحدة . .

تلك سالي أخرى أكن لها كراهية شديدة . .

لم أشعر بنفسي إلا داخل السيارة متوجها لمنزل هيثم صديقي والساعة تشير عقاربها للثالثة بعد منتصف الليل !

* * *

* * *

أضحى التنائي بديلا عن تدانينا * * وناب عن طيب لقيانا تجافينا

* * *

في مقهى كاد أن يخلو من الزبائن في هذه الساعة قبل أذان الفجر تجدونني أجلس مع هيثم الذي يسيطر عليه النعاس والذي يلعن سرا ذلك اليوم الذي عرفني فيه . . تلك ميزة من ضمن مميزات الصديق الأعزب . . تجده متاحا في أي وقت . .

- مش هتقولي بقى يا سي هشام إيه الموضوع الضروري اللي منزلني بسببه في (..) أم نص الليل كده ؟!

نظرت له مليا، ثم انسكبت الكلمات من فمي تحكي له كل ما حدث بأدق التفاصيل المملة منذ رأيت سالي في شرفتها حتى ليلتنا هذه، كان هيثم يعرف أغلب الأحداث وإن غابت عنه تفاصيلها، شعر بالملل في البداية حتى بدئت أحدثه عن المستجدات الأخيرة والتي جذبت انتباهه بشدة ورأيت في عينيه قلقا واضحا وهو يراني احكي وقد بدأ ارتعاش خفيف يسيطر علي يدي حتى وصلت للنهاية ولم أجد شيئا آخرا احكيه . . صَمَتُ تماما وكأنني شريط للتسجيل أفرغ محتوياته وصل لنهايته فلا تكاد تسمع إلا صمتا وسكونا . .

- روق كده يا هشام وصلي ع النبي . . خدلك نفس شيشة يروق أعصابك . .

بلا وعي امسكت اللـيّ ووضعته في فمي وسحبت دخان الشيشة ليحتبس الدخان في صدري ويحتقن وجهي بالدماء لأبدأ في نوبة من السعال تكاد أن تخرج أحشائي من فمي . . ظل هيثم يهوي بقبضته على ظهري حتى انتظم تنفسي ثانية وأعطاني كوبا من الماء أفرغته في جوفي وتركني دون تعليق حتى هدئت ثانية . .

- هشام . . أنا خايف تفهمني غلط . .

قالها وصمت، فنظرت له أن لا داعي للخوف من عواقب ما قد يقوله . .

ماذا يضير الشاة بعد ذبحها وسلخها . . !

- أنت يا ابني عمرك لا شربت ولا هتشرب سجاير . . !

- أنت كمان بتقول أني بخرّف !

قلتها في هدوء . .

- مش قصدي يا هشام . . بس مفيش واحد حرق السجاير دي في اسبوع على حسب كلامك ونفس شيشة يعمل فيه ده كله . .

- قصدك ايه ؟!

قلتها بنفس الهدوء . .

- قصدي إنك الفترة اللي فاتت كنت مضغوط جدا . . مش هعلق على المشكلة الأخيرة بينك وبين الجماعة . . بس حوار المذكرات والسجاير والحاجات دي كلها أنت بيتهيألك إنها حصلت بسبب الضغوط اللي عليك في البيت وفي الشغل . . سالي بتحبك يا هشام . . بس دي طريقة الستات بتنرفز دايما . .

من دون إضافة لأي كلمة مني، نهضت ووضعت عشرين جنيها على الكرسي الذي كنت أجلس عليه وانصرفت . .

- الحساب ع الترابيزة يا ريس والباقي عشانك . .

صاح بها هيثم وقفز يجري ورائي . .

- يـا عـم أنـت سـايبني فـي الحتـة المقطوعـة دي عشـان اتثبت وماشي . . عايزني أروح لأبويا بلبوص . .

أوصـلته لبيتـه وعـدت لشـقتي وأنـا أفكـر جـديا فـي النظريـة الوحيـدة العسـيرة علـى التصـديق و التـي أجمـع عليهـا هيـثم وسالي !

أحتاج لزيارة طبيب نفسي . .

* * *

في الأيام التالية انتظمت في عملي وقد تقبل اعتذاري مديري ومديره والشركة بكل من فيها حتى رضوان عامل البوفيه . . انتظمت في زيارات سرية لأحد الأطباء النفسيين والذي أعاد علي وجهة نظر هيثم . . تغيرت سالي تماما وتخلت عن غضبها وعصبيتها وأعاصيرها . .

عادت حياتي لطبيعتها بعدما اقتنعت مرغما أن كل ما عشته كان ضلالات وخيالات لعقلي المريض . .

ولكنني تعلمت درسا قاسيا . .

درسٌ على الرجال أن يتوارثونه جيلا وراء جيل . .

"لا تثق بالنساء"

صدقوني وصدقوا من قال "خذ الحكمة من أفواه المجانين" !

* * *

* * *

لا تأمنن إلى النساء * * ولا تثق بعهودهن

فرضائهن وسخطهن * * معلق بصدورهن

* * *

رحلة عبر التاريخ . . المحطة السادسة:

صباح يوم ٥ فبراير ٢٠١١

يجلس مع زوجته يتابعان باهتمام تطورات الأوضاع بميدان التحرير الملتهب . . الثوار يملئون الميدان مرابضين في انتظار تنحي رئيس البلاد عن السلطة وتسليمها لهم . . هي ثورة قادتها قتلى . . قُتِلَ خالد سعيد وتبعه سيد بلال على يد القوة الأمنية الباطشة التي لم تكن تعرف الرحمة . . الرئيس الحالي يرفض التنحي عن حكم البلاد . . يرفض أن يفر هاربا إلى السعودية مثلما فعل نظيره التونسي . . يصر على وصف ما حدث بالفوضى . . يقبع على رأس السلطة ممسكا بتلابيبها . .

يدرك أن هذا الشباب الثائر لن يقترب من دائرة صنع القرار إطلاقا إن نجحت ثورته . . تلك الجموع المحتشدة في التحرير وفي ميادين الجمهورية لا يكفيها كِباش الفداء من وزراءه ورجال حزبه التي ذبحها الرئيس تحت أقدامهم قرابين للثورة . . لا يقنعون ولا يرحلون بغير رحيله . . لم تجف بعد الدماء التي سالت خلال موقعة الجمل . . أضاعت تلك الموقعة ما كان قد ناله من تعاطف البعض بعد خطابه العاطفي الأخير . .

- فوزي . .

قالتها الزوجة مقاطعة زوجها عن مشاهدة التليفزيون . .

- مممم . .

قالها بغير اكتراث دون حتى أن يلتفت لها . .

- يا راجل بكلمك ما تبصلي . .

قالتها في دلال تجيده أو هكذا تظن . .

- عايزة إيه يا خديجة . . خير . . مش ع الصبح وحياة أبوكي . . أنا فاطران جبنة وقوطة حتى مفيش ورقتين جرجير !

قالها في إحباط وعاد ليتابع التليفزيون مرة أخرى . .

- أنت دايما دماغك رايحة شمال يا زوزتي كده . . بقولك . . أنا عايزة ديش ووشر . .

- الصيدليات قافلة يا خديجة دلوقتي . . أجيبلك منين أنا بس !

- بقولك ديش ووشر . . غسالة أطباق يا راجل أنت !

- ده وقت هزار يا ولية . . !

قالها وأشاح بيده . . ليس رائق المزاج لمثل تلك الدعابات . .

- وإيه الهزار في اللي أنا بقوله إن شاء الله يا خويا ؟!

قالتها ووقفت بينه وبين التليفزيون واضعة يدها في وسطها بتحفز واضح . . لا مفر من إكمال الجدال معها . .

- الهزار يا أختي أن من ساعة الثورة ما قامت وشركتنا واقفة . . والله أعلم هيشتغلوا تاني ولا لأ . . يعني ولا عارفين بعد الهوجة دي هيقبّضونا مرتباتنا ولا هيقولولنا شوفولكم شغلانة تانية وأمكم في العشة ولا طارت . . وأنتِ جايه تقوليلي عايزة غسالة أطباق ! . . طب ناكل ونشرب الأول بدل ما نموت م الجوع ويغسلونا في الشيش بووكر بتاعتك دي !

- والعمل ايه دلوقتي يعني يا ضنايا ؟!

قالتها والشرر يتطاير من عينيها . . لم ينفع معه الدلال ولابد من القليل من القسوة . .

- العمل إنك تعيشي عيشة أهلك يا خديجة وتغسلي المواعين بأيديكي . .
- أنا أيديا باشت م المواعين يا فوزي والدنيا تلج . .
- يا شيخة روحي . . هو أنت يعني بتعزفي بيهم في الأوبرا . . احمدي ربنا، فيه ستات غيرك بيشيلوا مواعينهم في الطشت ويغسلوهم في الترعة . .
- طب و الله ما أنا غاسلة حاجة . . شوفلك واحدة جاية من ورا الجموسة تغسلك في الترعة . . وبنفس الأيدين تغسلك (. .) – لفظ خارج حذفه الرقيب – بدل إيديا مش عاجبين سيادتك . .
- خدييييييييجة . . ما تخلينيش أقوم أكسر التليفزيون ده على دماغك . . اصطبحي وقولي يا صبح . . هاتيها البر، أنا العفاريت الزرق بيتنططوا قدام وشي السعادي . .
- بقى كده يا فوزي . . وماله يا خويا من عينيا . .

قالتها وانصرفت وعقلها الأنثوي قد دارت محركاته . . هي واثقة من أنه قادر على تنفيذ تهديده ووعيده كاملا . .

* * *

ميدان التحرير في ليالي الثورة يبدو في أروع صوره . . جموع المتظاهرين تملأ الميدان وكأنه يوم الحشر . . تعالت الهتافات من الحناجر "ارحل يعني إمشي . . ياللي ما بتفهمشي" . . الشباب متحفز على مداخل الميدان في انتظار

هجمات غادرة . . الجميع بأمان داخل الميدان . . حفل سمر رائع في قلب الميدان . . عائلات بأكملها نزلت تشارك في هذه الاحتفالية . . وكان من بينهم فوزي وخديجة !

كانت خديجة قد ألحت على فوزي بأن يأخذها في نزهة للميدان . . حذرها من وقوع موقعة جمل جديدة ولكنها طمأنته من أن الوضع أصبح مستقرا . . اقتنع بالنزول بعد إلحاح وإصرار من خديجة . . الحقيقة أنه في قرار نفسه كان يرغب في النزول بشدة للتأكد من الأجانب والعملاء الذين يتحدث عنهم إعلام ماسبيرو . . وطمعا في وجبة كنتاكي و ٢٠٠ جنيه . . وربما حالفه الحظ وشاهد أو شارك دون علم زوجته في واحدة من العلاقات الجنسية الكاملة التي تتم في الميدان مثلما تحدث عنها أحد الممثلين والذي اشتهر بدور قدمه كطباخ للرئيس . . سوف يغافلها ويغيب عنها لدقائق ليبحث عن الخيام التي ترفع الرايات الحمراء في قلب الميدان أو على أطرافه تدعو الراغبين في ممارسة البغاء ليلبوا النداء . . هي فرصة ربما تكون مجانية . . خديجة لم تعد تعتني بنفسها كما يجب . .

فجأة اختفت خديجة من جواره . . خاف فوزي من أن تبحث زوجته عن تلك الخيام هي الأخرى . . كما تدين تدان . . لم يكن يعلم أنها تقف الآن مع بعض الشباب الثائر المثخن بالجراح النفسية والبدنية من جرّاء موقعة الجمل . . تخبرهم بأن هذا الرجل النحيل الأصلع هو أحد كوادر الحزب الوطني الذي لم يعترف يوما بكلمة ديموقراطية . . له علاقات وطيدة بأمن الدولة . . كانت تراه في الحزب كثيرا قبل أن يتوب الله عليها من مستنقع الفساد هذا . . تتبعته يتنقل في الميدان يجمع المعلومات ليبلغ بها رؤساءه وأولياء نعمته . . جاسوس يتخفى في ثوب الثوار . .

الشباب الثائر يتوجه نحو فوزي الأصلع النحيل . . يطلبون بحدة بطاقته الشخصية . . يأبى كبرياءه وكرامته الاستجابة لمطلبهم . . يفرغون فيه شحنات غضبهم كاملة لا يستبقون شيئا . . هذه فرصة ملائمة للقصاص من زبانية أمن الدولة وأتباع الرئيس . . تحول فوزي لكفتة دون أدني مبالغة . . عجين من بقايا رجل كان . .

خديجة من بعيد تشاهد وتبتسم . . ماذا كان سيضيره لو كان اشترى غسالة الأطباق من البداية دون جدال وتهديد ووعيد !

* * *

جريدة المصري اليوم – الصفحة الثالثة:

"الثوار يفتكون برجل في الأربعين من عمره بعد شكهم في تبعيته لأجهزة الأمن . . بلا بلا بلا . . . "

المرأة في القرن الواحد والعشرين

* * *

(٢١)

مـر ثلاثـة أشـهر منـذ بدايـة جلسـات المتابعـة مـع الطبيـب النفسي . .

جاء الشتاء مختلفا عن سابقه !

لم يعد الشتاء مثلما كان في الماضي !

درجات الحرارة تتنافس يوما وراء الآخر على من يقترب من خط الصفر ويحصد كأس الجليد !

السـماء تبكـي بحرقـة فتغـرق بسـيولها الأخضـر واليـابس فتتحول الأرض لعجين من الطين !

خرجتُ من عيـادة الطبيب النفسـي الـذي اكتسبته صديقا من فئة كبـار السن لأبدأ فترة عملـي المسائية متنقلا بين عيـادات الأطباء الجشعين . . ولكن الطقس كان سيئا بحق . .

ركبت السيارة واتخذت قرارا لا رجعة فيـه بـالعودة للمنـزل للاستمتاع بحمام دافئ ثم الاختبـاء أسفل مجموعـة منتقاة من أفضـل وأجـود أنـواع الأغطيـة والبطـاطين . . وعنـدما دخلـت الشقة سمعت بكاء يأتي من غرفة النوم . . من هي غير ملك . . ملاكي الصغير . . يبدو أن سالي في المطبخ أو في الحمام . . لم تكن لتترك ملك تبكي لأكثر من ثانيتين حتى تهرع إليها . .

عندما دخلت الغرفة وجدت ملك فـي الفراش تبكي . . عنـدما رأتني توقفت عن البكاء كعادتها وضحكت . . عندما يضحك هذا

الملاك أشعر وكأنني أحلق في سماء الفردوس الأعلي . . حملتها وبدئت أغني مقلدا بصوتي الأراجوز في أوبريت الليلة الكبيرة . . استمرت ملك في ضحكاتها . . جلست بها على الفراش لأشعر بشيء تحتي . . مددت يدي لأرفع الكتاب الذي جلست عليه . . لابد أنه رواية أو كتاب تاريخي . .

صعقتني الصدمة !

"حتشبسوت وتمرد الكتكوت" ! !

فتحت الكشكول وتأكدت من محتواه . . هو جزء جديد من مذكرات سالي . . سالي التي كانت تقف في تلك اللحظة على باب الغرفة وعينها مثبتة على الكشكول بيدي . .

- دي برضوا تهيوئات وأنا مريض نفسي وبيتخيلي حاجات يا أستاذة سالي ؟!

كان صوتي تزداد حدته تدريجيا . .

بدئت ملك في البكاء . .

نقلت سالي نظرها بيني وبين مذكراتها وبين ملك الباكية وصاحت في غضب:

- أنت إزاي تدي نفسك الحق تقلب في حاجاتي الشخصية . .

صوت بكاء ملك يرتفع . .

- لا انسي يا أستاذة حوار خدوهم بالصوت قبل ما يغلبوكوا . .

- هات الزفت ده . .

قفزت سالي تجاهي وحاولت أن تخطف مذكراتها من يدي ففشلت . .

بكاء ملك يتحول لصريخ . .

- انسي إنك تاخديه . . ده أنتِ خليتيني أروح لدكتور مجانين . . كنتي هتدخليني العباسية يا حضرة الأستاذة . . ده أنا بدئت اقتنع أني مناخوليا بجد . . !
- ما أنت مجنون فعلا . .
- أنا مجنون علشان حبيتك ووثقت فيكي السنين دي كلها . . مجنون علشان مرمطت كرامتي في الأرض علشان بحبك . . مجنون علشان ما خدتش بالي إنك عمرك ما حبيتيني زي ما بحبك . . ده أنتِ عمرك ما حبيتيني أصلا ! . . أنا مجنون فعلا عندك حق علشان ما صدقتش من أول مرة شفت فيها الكلام ده أنك بتتسلي بيا وكأني عبد عندك . .
- قولتلك هات الزفت ده . .

قالتها وحاولت أن تخطف المذكرات مني مرة ثانية ولكنها في نفس الوقت دفعتني لارتطم بعنف في خزانة الثياب . .

ملك تستمر ببكائها وصريخها . .

نهضت وأمسكت بتلابيبها صارخا . .

- أنتِ بتضربيني . .؟! ؟! ؟!

ولكنها فاجأتني بركلة من ركبتها استقرت بعنف بين فخذي ثم تلتها بلكمة عنيفة في فكي فوجدت نفسي أسقط جوار الكرسي الخاص بالتسريحة . .

لم أكن مدركا وقتها لما أفعله . .

كنت مغيبا عن الوعي وقد أعماني الغضب . .

لم أشعر بشيء سوي بالكرسي وهو يهوي على رأسها لتسقط فاقدة الوعي وقد تفجر ينبوع صغير للدماء في رأسها . . !

ملك اختفى صوتها تمام من شدة البكاء!

* * *

جلست للحظات على الفراش وقد فقدت القدرة تماما على السيطرة على أطرافي . .

دقائق مرت لا أعرف عددها حتى بدئت استجمع شتات ذهني . . ألملم أفكاري المبعثرة في محيط الغرفة . . أحاول أن استعيد السيطرة على يدي اللتين ترتجفان في عنف . .

حملت ملك واحتضنتها . . أرهقها البكاء حتى غطت في نوم عميق . . ملاك نائم بين يدي الآثمة التي أعتدت على سالي . . لم أتخيل أن يحدث هذا في أشد كوابيسي بشاعة . . وضعت ملك على الفراش وها أنا أجلس الآن على الكمبيوتر الخاص بي أحكي لكم ما أوصلتني إليه شياطين الغضب . .

لا أعلم هل فقدت سالي الوعي أم صعدت روحها التي عذبتني إلى بارئها . . قد تجدون صورتها غدا في صفحة الحوادث إلى جوار صورتي وقد اخفوا عيني خلف شريط أسود كي لا تظهر نظراتي المتوحشة للعامة ومكتوب أسفل الصور . .

"القاتل الذي تخلى عن ميراث البشرية والإنسانية من التقدم والتحضر والرقي، والذي حركته طبائع الذئاب فقتل زوجته "

قد تشاهدونني قريبا مع تلك المذيعة اللزجة في إحدى حلقاتها تعذبني بأسئلتها الساذجة حتى لأتمنى أن أشنق ألف مرة ومرة في مقابل أن يبعدوها عني . .

لا أعلـــم الآن . . . .

* * *

* * *

خذوا بدمي منها فإني قتيلها

ولا مقصدي ألا تجودي وتنعمي

ولا تقتلوها إن ظفرتم بقتلها

ولكن سلوها كيف حل لها دمـي

* * *

الأعضاء الأعزاء في منتدي شبابنا.نت . . هكذا انتهى ما وصل إلينا من حلقات مذكرات هشام العضو الغامض بالمنتدى الذي لا نعرف أي معلومات عنه سوى ما ذكره عن نفسه فيما سبق . . هي وصلتنا هكذا ولا نعرف من هو صاحبها وما مصيره وماذا حدث له في المستقبل . . اضطررت كأدمن لاستخدام سلطاتي للولوج لحسابه على موقعنا بعد ضغوط هائلة على إدارة المنتدى من الأعضاء بعد تغيب هذا العضو الغامض عن الظهور منذ شهر مضى . . كانت آخر الحلقات لازلت محفوظة تلقائيا ولكنه لم يعتمدها للعرض العام بعد . . أردنا فقط أن تصل إليكم مثلما أراد ليأخذ الجميع العبرة والعظة . . لا نعلم حقيقة هل ما رواه هو واقع عاشه بالفعل أم مجرد حلقات من وحي خياله البحت . .

Admy

* * *

من مذكرات سالي :

" عندما أفقت بعد ساعات لم أدرك ما فعلته في الدقائق التالية إلا بعدما قُضِيَ الأمر . . لا ألوم نفسي كثيرا . . لم يعد إنسانا يحتمل . . هل يصل به الأمر إلى الاعتداء علي وضربي بعدما تحملته كل هذه السنين وصبرت عليه صبر الصابرين ! ! . . أحيانا وقت الغضب يفقد الإنسان السيطرة على أفعاله حتى وإن قادته لكوارث لم يكن ليتخيل حدوثها يوما . . لابد من إخفاء الأمر وكأن شيئا لم يكن"

* * *

جريدة فيتو :

كتب:أحمد الديب

لا زال رجال المباحث يحاولون فك لغز القتيل الذي وجده أحد المزارعين داخل حقيبة سفر ضخمة وقد علقت بإحدى مواسير الصرف في ترعة (. . .) على طريق قرية (. . .) . . بلا بلا بلا بلا . . رجال الطب الشرعي يؤكدون أنه قد تعرض للذبح بآلة حادة قبل الغرق بساعات ولم تكن الوفاة بسبب اسفكسيا الغرق . . بلا بلا بلا . . أكد العميد سامح البهيدي أن القتيل ربما تعرض للاعتداء بغرض السرقة في ظل الإنفلات الأمني الحالي . . الجثة لشاب في أواخر العشرين من عمره . . أسمر البشرة مجعد الشعر ولم يستدل على أهله حتى تلك اللحظة . ."

* * *

تمت بحمد الله

مصطفى النجار

التعريف بالكاتب:

الكاتب مصطفى النجار، مواليد ١٩٨٧، صيدلي مصري، يعمل حاليا بمجال التصنيع الدوائي، وكان قد انتخب أمينا لاتحاد طلاب كلية الصيدلة بجامعة الزقازيق وأمينا للجنة الثقافية العليا باتحاد طلاب الجامعة بنفس السنة، للكاتب رواية "كيدهن عظيم !" وهي تنتمى للأدب الرومانسي الساخر وتعد رواية سرائرهم ورواية الضالون أولى الأعمال المطبوعة.

يمكنكم متابعة الكاتب من خلال صفحته الشخصية على موقع فيس بوك من الرابط التالي:

https://www.facebook.com/moostafa.elnaggar

أو من خلال صفحته الرسمية من الرابط التالي:

https://www.facebook.com/MostafaElnaggarWritter/

كما يمكنكم متابعة الكاريكاتير الخاص به من خلال صفحته على موقع فيس بوك باسم "دوشة ولا بد منها" من الرابط التالي:

https://www.facebook.com/dashalabodmenha/